الورقة البيضاء

رواية

سراج الأمين موسى

الورقة البيضاء
المؤلف : سراج الأمين موسى

تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولى : يناير 2019
رقم الإيداع : 2019\3570
الترقيم الدولي : 978-977-769-255-7

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 4 شارع محمد مظلوم -
من صبري أبوعلم - عمارة
أنور وجدي - الدور الثاني - مكتب 25
م : 01010490247
ت : 0223963002 (2+)

الإهداء

إليك رحيلة بت شعيب أمي أنا ...

الفصل الأول

«غير أن الوجود مثل الكتابة لا يقوم إلا علي تكرار جملة مسروقة
من شخص آخر»

فرديريك بوير

ها هو يوسف راقد كعادته في منتصف المنجم يتوسد همومه التي نفذت إلي دماغه من شباك الحياة وما زالت بعض الهموم تتنافس من أجل حجز مكان آمن في دماغه الذي لا يحوي سوى المشاكل والخمر التي تكفيه شر الهذيان والهلوسة وتأنس وحدته في ليالي اكتمال البدر.....

أوقات فراغه يستغلها لتأمل سقف المنجم يتبع تعرجاته بنتوعاته المتداخلة وصوت الجاك همر يأتيه بوتيرة منتظمة تتداخل مع دقات قلبه واهتزازات جبل قردود تورو تتلاقح مع تلك الأصوات لتتمخض أحزانه وتلد علي مرأى ومسمع كل الخلائق...

لم يكن أكثر من مجموعة من الخلايا التي انسابت فيها الكآبة حد التشبع، كان أشبه بجنين في رحم أمه، أشده انفعالته لم تكن تتخطي التفافة بالحبل السري الذي ينسد مانعًا عنه المدد الدموي ليُسكن بعدها رأسه في رحم الغيب منتظرًا تأشيرة خروجه للدنيا وهو متقوقع في مكانه دون حراك.....

يشعل سيجارة وينفث دخانها وهو يتابع دوائر الدخان إلي أن تتلاشيء بين جنبات المنجم يبتلعها الفراغ الذي ابتلع أفراحه وهضمها جيدًا دون

أن يترك حتي فرحة الذكرى وبعدها تغوضها أحزانًا يغوص فيها يوسف بحثًا عن ما سوأها، وفي مرات كثيرة تجده يطالع بعض الكتب العملاقة ذات الحجم الديناصوري، كتب يصعب حملها دعك من قراءتها لذا يضعها علي حجره أثناء قراءتها ويستعين بلعابه اللذج لقلب صفحاتها، استطعت اختلست النظر إلي أحد كتبه الذي كان بعنوان الأبله للكاتب الروسي فيدور دوستوفيسكي والغريب أنه يقرأها بعد أن يتجرع الخمر التى يحضرها صديقه الوحيد الذي يسمى كمال أحمد يتجرع خمرة ويبدأ بذكر أشياء لا أحد يعرفها سوى صديقه كمال ولم يكن يهتم بشخص في منجم قردود تورو لا أحد يهتم لأمره أيضًا، لم يكن متغرطسًا كما كان يعتقد البعض لكن مظهره يدل علي أنه مهشمًا، رخوًا من الداخل، شيء ما ميتافيزيقي غير مرئى ينخر أحشائه ليكون بتلك السطحية والعمق أو بالأحرى كان عميق الكآبة ومع ذلك فقد كان كل العمال في المنجم يحرصون علي أن يكون معهم في بئر واحدة بل وفي نفس الوردية لأن البئر التي ينزل فيها يوسف لا تخيب أبدًا وبدل أن كان العمال يقولون: إن الذهب في ذمة الزئبق ذلك السائل الثقيل والنفيس أصبحوا يقولون: إن الذهب في ذمة يوسف تيمنًا بحظه الذي لم يخب أبدًا ولكن المشكلة تكمن في المقدرة علي إقناعه فهو نادرًا ما يغير البئر والوردية التي يعمل بها.....

أكثر ما كان يؤجج حب استطلاعي أو إدخال أنفي في ما لا يعنيني تلك الورقة البيضاء التي لم تكن تفارقه كظله، استطعت بعد جهد وعناء

أن أعرف أنها ورقة بيضاء فقط ليس بها ولا حتي كلمة واحدة كان يمسك بها طوال فترة شربه للخمر يضغط عليها باستمرار كأنه يريد تغير لونها، يهتم بها كأنها جواز مروره للجنة.....

شخص به من الغموض ما لا تحويه لوحة الموناليزا لدافنشي بل أكثر غموضًا من تلك الرموز المحفورة علي بعض المقابر النوبية وبعض التحف الأثرية العتيقة.....

غموضه هذا جعلني أرصد تحركاته وأحاول معرفة ما يحويه دماغه فالشيب الذي بدأ يغذو رأسه يحفزني أكثر لمعرفة كل ما يحويه هذا الرأس الذي لا يختلف عن ثمرة الدليب في شيء غير زغبات الشيب النامية عليه.

لم يكن يظهر أي إنفعالات تجاه كل ما يحدث حوله، ذات مرة قُتل بالقرب منه شخص بعد عراك طويل ولكنه كان محافظًا علي هدوئه وما زالت عيناه في محجريها ساكنتان تماما كتنين نذق كأن الذي نحر بالقرب منه حيوان متوحش أو أحد خراف الأضحى.... أعتقد أنه بلغ درجة من التحطم تذوقته جميع خلاياه وتشرب جسده بالكآبة حتي أصبح كطبيب أطفال عقيم.... .....

ذات مرة أسدى لي نصيحة دون سابق إنذار أو سبب مسبق قائلًا: إياك يا آدم أن ترتكب خطأ أبو البشرية آدم عليه السلام إياك أن تفكر في الخلود الذي كان سبيل الشيطان الوحيد لغوايه أبوك، أبوك استغفر وغفر له الله ولكنك ستعاني إن أخطأت، الخلود الذي لن تناله إلا بالتوالد، يمكن أن تُخلد نفسك دون أن تقرب تلك الشجرة، تزوج دون أن تتعاطى الحب

لأن مدمن الحب يموت خرمانًا، ليتك كنت ضفدعًا عندها لن يكلفك التوالد سوى أن تلقي بحيواناتك المنوية في أقرب بركة ماء، لن تكون وقتها مجبرًا علي تحمل شبق أنثي خصبة تشتهي عندما تحب وتوفى بوعدها عندما تعاهد، وتموت عندما تخون، ولا تتردد في أن توقع علي ورقة امتلاك من تحب إن لم تفعل ستندم يا آدم ستندم ربت علي كتفي وهو يكرر إياك ثم إياك يا آدم كانت المرة الوحيدة التي يناديني فيها باسمي حتي اسمي بدأ لي غريبًا وهو ينطقه وقد أفزعني حديثه الذي لم يعده مرة ثانية.....

حاولت أن أتقرب منه ولكن دون جدوى كان الأمر كمن يحاول احتضان ظله، أصبحت أشاركه أوقات فراغه وأدخن معه لفافات سجائره.....

لا يتكلم كأنه ميت سريريًا سألت عنه صديقه كمال في العديد من المرات ولكنه كان يتجاهل سؤالي ويهز رأسه وهو يغمغم ببعض الكلمات غير المفهومة لم أتنازل عن كشف أغواره لذا لم أكن أتركه ولو لبرهة حتي مواعيد عملي جعلتها تتزامن مع عمله .....

كنا نعمل ثلاثتنا سويًا في الوردية الليلية ونزعج سكون الليل بالضجيج الذي نحدثه أنا وكمال ويكتفي يوسف بابتسامته الباهتة المهترئة الجافة من حين إلي آخر ولكنه أصبح يتعايش معي ويشاركني بعض كتبه التي يقرأها في النهارات أثناء تناوله للخمر يقرأ ويبتسم ولكن في إحدى المرات أخذ يقهقه بالضحك أثناء قراءته حتي فزعت من مكاني حاولت أن أسأله عن سبب ضحكته المجلجلة ولكنه اكتفي بأن أشأر إلى

نص يضع أصبعه تحته

لم يكن بالنص شيء مضحك لقد كان النص (قصص الحب ترقد علي هامش الأرصفة تتوسد التراب، يطأها الناس بأقدامهم، لم تجد قبولًا وأقعيا ففضلت أن تسكن بالكتب والروايات والخيال لأن الواقع تقيأها وأصبح يتجشع الخيانات كلما احتسيبعضًا من الحب المسموم).....

بعد أن قرأت النص كدت أن أصفعه لكني اكتفيت بأن دفعته ليستلقي وهو لا يزال يضحك أخبرت كمال أنه أخيرً قد نالت الخمر من دماغ يوسف إلا أنه هز رأسه وهو يؤكد لي أنه أسهل لجمل أن يلج ثقب إبره من أن تنال الخمر من دماغ يوسف، يوسف سكران مذ أن غزا الشعر إبطه ولحيته إلي يومنا هذا فسكران الهوى يظل طوال العمر سكرانا يا آدم لن يسكر ولو تجرع كل ما ينتجنه الفداديات في السودان ..... لم أقل شيء بعد ذلك اكتفيت بتدخين سجائري وأنا أنفثه بلذة وسط المنجم ويعتريني هدوء القبور ولكن معارك كلامية تدار برأسي الذي ما ينفك يقذف علي ذهني الأسئلة دون تردد أو مواربة، يقذفها بعد أن يقشرها وكنت لا أتهاون في تناول الطاعم لماذا تكترث لأمره؟

ما الذي يجعلك تهتم به لهذه الدرجة؟

هل هو أحد أقاربك ؟

ماذا لو كان أمره لا يساوي بعرة في دبر صقر كلدينج أبو صلعة؟

ماذا لو كان ....؟

ماذا لو ....؟

ماذا....؟

ماذ.....؟

ما.....؟

ما كنت أهتم لتلك الخزعبلات التي يرسلها دماغي فقد اشتريت قضيته ونصبت نفسي للدفاع عنه....

هكذأ كانت تتدافع الأسئلة في دماغي لكن لا يضر السحاب نبح كلاب فقد حسمت أمري بأن أعرف قصة هذا المدعوى يوسف وإن كانت لا تساوة بعرة في إست كلدينج أبو صلعة أريد أن أعرفها بكل ترهاتها لذا سأصبر حتي أنال مرادي أريد شغف المعرفة اللامحدود، حقبت سجائري وبعض الكتب التي استعرتها من يوسف وانزويت في أبعد مكان أرغبه طوال الوقت دون أن أتحدث معه ولكني لاحظت أنه يتابعني ببصره كأنه يحميني من الشياطين التي تحمي الذهب من الأنس والجن.

كان كمال دائمًا ما يقول إن الذهب تحت أقدام الشياطين الذين كانوا يحرسونه قبل ممات نبي الله سليمان، لكن الشيطان يضللنا ببرازه الذي يشبه الذهب حد التماثل والتطابق ولكننا نعجز عن كشف ألعيبه، كان يقول ذلك بإيمان مطلق وهو يتلفت مخافة أن يراه أحد العفاريت ويوشي به عندها لا محال سيتحول إلي حرباء أو ضبع ....

في إحدى الأماسي وهو يحكي قصصه المأساوية عن الشياطين وتحويله إلي حرباء أخبره يوسف بأنه إذا أراد أن يتحول فليطلب من الشيطان أن

يحوله إلي أصلة أو حتي أبوشوك لنستمتع بوجبة عشاء دسمة فما أشهى لحمه مقارنة بصعوبة صيده.....

هذه من المرات القلائل التي يتحدث فيها يوسف مع كمال في وجودي بيد أن كمال يحكي قصته هذه كل يوم بنفس درجة الإيمان بل أكثر توجسًا ورعبًا من الشياطين.....

مع حلول الظهيرة يذهب كمال ليجلب الخمر والسجائر لصديقه يوسف فهو لا يخرج إلا لقضاء حاجته أو التمعن في صقور كلدينج أبوصلعة.....

مرة وجدته جالسًا القرفصاء في منتصف المنجم واضعًا رأسه بين ركبتيه، كان ذلك في يوم ممطر سدت المياه كل الطرق التي تؤدي إلي المدينة، نفدت كل سجائره فبات وحيد كقبر دون معالم .....

أحس بتواجدي فرفع رأسه متعتعا: أمعك سجائر؟

لم أرد اكتفيت بأن مددت له علبة سجائر بها ثلاث لفافات من البرنجي، عندها قام من جلسته تلك، واستقر حيث كتبه وقبل أن يشعل السيجارة أفرغ رئيته من رائحة الطين ليعبى كل سنخه من أسناخ رئتيه بالدخان، لينساب الخدر إلي كل جسده وهو ممسك بذات الكتاب المعنون بالأبله، ينفث الدخان وهو يقشر شفتيه بقواطعه ساندًا رأسه على رزمة من الكتب التي هي أقرب للمجلدات منها للكتب.

استيقظت مفزوعًا بصرخة يوسف التي ابتلعها صوت الجاك همر وما كانت لتصل لأذني لولا تتبعي له، جريت نحوه فوجدت أن ثعبانًا

قد لدغه فقمت بقتل الثعبان وامتصاص السم من ساق يوسف وعندما بدأ يتعرق ولونه أخذ في التغير كأنه يريد أن يتحول إلي حرباء، ربطت مكان الإصابه وأقلقت مضاجع بعض الأصدقاء الذين يعملونا في المنجم ساعتها لمساعدتي لحمل يوسف للمشفي لم يتوانَ أحد، الكل فر للمساعدة وأثناء ذهابنا للمركز الصحي المتواضع بقردود تورو كان يوسف يهذي ببعض العبارات والأسماء التي لم أفهمها.

الكل كان قلقًا علي صحته إلا أنني كنت أكثر اهتمامًا لهذيانه والأسماء التي يهذي بها، لم أركز علي أي منها إلا اسم عهود ليس حبًا في الاسم بل لأنه كان يردده كثيرًا كأنه يطلب منها أن تساعده للتخلص من السم، عندما تنبهت إلي أني أركز علي ما يقوله أكثر من خوفي عليه من سم الثعابين وبخت نفسي علي هذه الأنانية وأنا أعرف أن الثعابين والأفاعي لا تتوانى في قتل كل من سولت له نفسه سرقة الذهب، وعلي حد قول كمال إن الثعابين والعقارب تقوم بمساعدة الشياطين في حفظ خزائن نبى الله سليمان من أيادي الحباشة وقال أيضًا إن الشياطين يفضلون الضباء والحرباءعن كل شيء آخر لذلك يقومون بسخط ومسخ كل من طالته أياديهم التي تشبه شوكة الضريسة إلي ضبع أو حرباء ويقدمونه كمهر عند الزواج، هكذا كان كمال ثرثارًا لا يتوقف عن الحديث حتي أثناء نومه عكس صديقه يوسف الذي ما زال يتعرق واللاند كروزار يحمله بقميصه الوحيد وبنطاله المتسخين ويشق طريقه نحو المركز الصحي الذي قد يكون خاليًا إلا من بعض المرضى الذين عجز الأطباء عن تحديد مرضهم

فأصبحوا حبيسي الفراش علي عشم أن يشفيهم الله بفضل الأعشاب البلدية وبعض الفكيه المشهود لهم بالصلاح ولكن الفكيه نفسهم ما زالت أسنانهم تؤلمهم عند شرب الشاي ولا يقربون البلح إلا وهم سكاري في قمة عريهم الروحي....

وصلنا بيوسف للمشفي قبل أن يدق ملك الموت إنذار إقلاع طائرته التي ستهبط حتمًا في الدار الآخرة، لأن كل الذين يلدغون يصلونا للمشفى وقد حصلوا علي لقب مرحوم لذا كان من القليلين الذين يتحصلون علي علاج بدلا من ذاك اللقب، لا بد أنه كان يتمنى الموت فمن قال إن كل حي ينبض قلبه ليس بميت فالقلب كالزجاجة الفارغة إن لم تتوسده أنثي ملاءة الهواء.....

أخذ العلاج وبدأ وعيه يعود إليه حاول أن يقوم من مرقده فضغطت علي كتفه مخبرًا إياه أن يستريح ولكنه كعادته التحملقية أخذ يحملق في الحاضرين الذين كانوا يتمنون له عاجل الشفاء، بعدها طغى علي المشفى هدوء جنائزى لقلة معرفة عمال المنجم بيوسف الذي ظل يتحسس ورقته البيضاء التي لم تكفه شر الثعبان الذي لدغه إن لم تكن هي السبب....

وقبل أن نعود للمنجم حضر كمال وقد فارقت عيناه الصغيرتان محجريها من رعبه علي صديقه الذي ابتسم عندما وجد كمال داخلًا عليه.....

ما هي إلا ساعات وقد عاد الكل إلي المنجم الذي يحوى كل شيء بما في ذلك الذهب القابع تحت وطأة الشيطان إلا ذهن يوسف الذي أحس به

بعيدًا عن جسده بُعد المشرق عن المغرب، فيستحال أن يكون هذا الجسد النحيل يحوى ذهنًا .....

قطع يوسف استرسال أفكاري بسؤاله عن الخمر ولكن كمال طلب منه تعجيل الشرب ليوم غدٍ ولكن دون جدوي إصراره أرغم كمال علي إحضارها ليبدأ يوسف في طقوس تجرع الخمر بعد صلاة الظهر فهو مع كثرة اختماره إلا أنه نادرًا ما يترك الصلاة.....

سألت كمال عن تاريخ عهد يوسف مع الخمر فقال إنه لم يعرف الخمر إلا بعد قدومه إلي المنجم أي من نحو ستة شهور ولن يدعها إلا إذا ترك المنجم، أما الصلاة فقد شب بها وسيشيب عليها.....

كنت أخرج في الليالي المقمرة عندما يجتاحني الحنين إلي فتاتي للبحث عن مكان تكون فيه شبكة الاتصال جيدة، فأعود وأنا أدندن بصوتي المهشم الرث الذي يوضح تسمم حبالي الصوتية، فلم أكن أهتم بضخامة صوتي فأنا أرى أن الغناء ليس أدء ما يراه الآخرون جميلًا ولكنه انعكاس ما أحس به، فحتي الحمار ينهق عندما تشبق أنثاه وكذلك تموء القطط في ثورة اللذة، لم لا أفعل أنا! الأمر لم يكن يتعدى طقوسًا فسيولوجيًا لذا كنت شفافًا في انعكاسي....

وفي إحدى الأماسي المعتمة خرجت وعدت بكآبة مفرطة لاشتداد الحوار مع فتاتي تلك التي تصنع مني مغنيًا يمجدها أو راقصًا يلهو علي إيقاع قلبها، سبب اختلافي معها أنها تلح علي بأن أكمل دراستي الجامعية التي أنوي أن أطلقها بالثلاثة دون سبب غير أني أرى فيها مضيعة لوقتي،

لكنها كانت تصر باستمراري في دراستي، لذا شيعتها إلي ذات البئر التي كانت تنتظرني فيها وتركتها في انتظار غافله العزيز عساهم يلتقطونها من تلك البئر ....

لكني ندمت علي قراري هذا بعد أن تسلل الشيب لرأسي، كنت أخاصمها لأنها تفكر وتبحث لي عن الحلول هذا ما جعلني أبتر حديثي معها وأعود مطبقًا علي شفتيَّ دون غناء أو رقص وبانكسار لم يعهده الأصدقاء في المنجم، عندها سألني كمال عن سبب تكدري وقبل أن أجيب قال يوسف مقاطعًا(زهج وقرف قدر دا بتجيبوا معرفة النسوان، وأضاف وهو يشعل سيجارته شكلوا اختلافًا مع ست الحسن والجمال).

عندها انفعلت وأفرغت كل ما في جرابي من غضب وأنا اقول: (وأنت المخليك تسكر الزمن كلوا شنوحبًا في معصية الله ولا دي عهود الكرهتنا بيها زمن عضاك الدابي.....)

تغير وجهه وامتعق من حديثي فلم يعتد أحد علي أخباره بمواضع ضعفه ومناطق هشاشته، لم أكن أتخيل أن لحديثي ذلك الأثر علي نفسه ولم أره بذلكالضعف مذ عرفته....

كان الصمت يدب دبيبًا في جسد تلك المغارة والليل يسدل أستاره وأغلب من في المنجم بل كلهم نائمون كأصحاب الكهف، قطع يوسف ذلك الصمت وهو يربت علي كتفي ويشير بأن الحق به في الخارج الآن.....

تسمم جسدي بسم الشك فظننت أنه يود قتلي لما قلته، فكرت في أن لا أتبعه ولكن حب استطلاعي حال دون ذلك، فلابد أنه سيعلمني مما علم

رشدًا، وقفت ليس ببعيد عنه ولا قريب، تركت للشك مسافة لا بأس بها ولكنه بدأ يقترب مني وهو يدخل يده في كيسه الذي لا يفارقه كدت أن أهرول لولا أنه قال:

(خذ هذا الدفتر ستجد فيه كل الأشياء التي جعلتني كما ترى أقرأه لتدرك مرارة افتقاد المحبوب عندما تنضج ثمرة الحب، افتقاده بألم يضاهي لذة تملكه خذه ولا تخف....)

أخذت الدفتر بكلتا يدي وأنا أرتجف من البرد والخوف وما يحويه الدفتر، لا بد أنه يحوي ذاك المجهول الذي يحول شخصًا بقيمة يوسف ورجاحة فكره إلي كتلة لحم رثة نتنة متعفنة في مناجم قردود تورو.....

نمت قرير العين وأنا أمني النفس بنبش مكمن الضعف في شخص يوسف ولكني استيقظت الصباح ولم أجد إلا مكانه حتي صديقه كمال لم يكن موجودًا فقد ترك كلاهما المنجم، سألت عنهما فأخبرني أقرب العمال لكمال بأنهما قد سافرا صباح اليوم إلي الخرطوم.....

الفصل الثانى

(نحتاج بعض الجنون في حياتنا، لأن الحياة العاقلة مملة)

فريدريك نتشه

أخرجت دفتر مذكرات يوسف وبدأت في القراءة (ما زلت أمارس عادتي القديمة كل صباح بالجلوس في المقهى في طاولتي المخصصة وأنا أرتشف قهوتي بمتعة وأنظر إلي المارة كفأر حاصرته القطط في زاوية ضيقة وبين حين وآخر استرق النظر نحو النادلة الحبشية الردفاء وهي تعيد ترتيب الكراسي والبنابر أو تقوم بإيصال القهوة إلي أحد الزبائن ومذ أن تعمدت إخبارها بأن شفتيها المكتنزتين والمحدودبتين تذكراني ببنت جارتنا، أصبحت الحبشية تتابعني بنظراتها وكلما التقت عيني بعينيها كانت تبتسم وكنتُ مرغمًا علي مبادلتها بابتسامة صفراء باهتة لا طعم لها غير أنها انقباضات عضلية واهية....

كان يومي ذاك استثنائيًا كاليوم الذي تنتصر فيه الثورة ويمشي الشعب علي جثث الطغات وأكثر ما زاد تفرد ذلك اليوم هو حصولي علي نسخة من رواية سماهاني للكاتب الروائي عبد العزيز بركة ساكن.....

ارتشفت قهوتي وأنا أطالع الصفحات الأولى من الرواية بلذة طاغية وفي تلك الأثناء قاطعني صوت نسائي مموسق عزفته ودوزنته حبال صوتية متفردة (من أين حصلت علي هذه الرواية لقد بحثت عنها

كثيرًا.....)

(تفضلي بالجلوس .....)

جلست وهي تنظر إلي الرواية لم تعرني اهتمامًا، كان جل تركيزها مع الرواية التي صرفتُ النظر عنها وأخذت أتأمل ملامح هذه الفتاة لم أكن أتخيل أن هناك فتاة بهذا القدر من الجمال والهدوء بكوكبنا هذا مع العلم بأننا في كوكب الأرض، لا يمكن لشخص أن يتخيل درجة تقوس رموشها وإن تعاطى فدانًا من البنقو ....

أعطيتها الكتاب لتتصفحه كي أتمكن من تصفح معالم وجهها مما سمح لي بإسكان بصري علي غمازتها اليتيمة بالخد الأيسر وتمريره علي حواف حاجبها الذي يبدو كهلال يشق كبد السماء، إبتسمت وهي تطالع أحد نصوص الرواية فتبينت أنها تملك غمازتين عندما تبتسم، ابتسامة بصوت الكمان وإيقاع خرير الماء ولون البحر، رفعت رأسها فضبطتني متلبسًا وأنا أنظر إليها، عندها صرفت بصري نحو الحبشية هرباً من سهام عينيها فلا أحد سيصمد أمامها (هكذا هو بركة يتناول المواضيع الجوهرية دائمًا) ألقت الجملة وهي تضع الرواية علي الطاولة (تناوله للأشياء الجوهرية يجعلك تتلهفين لنصوصه) (نصوصه شهية تجعلك تلتهم كل أعماله الأدبية جملة واحدة دون أن تشعر بالشبع) هكذا كان ردها

أضفت وأنا أُمسد شعري المجعد (يبدو أنكِ من الفتيات اللاواتي يشتهين النصوص)

(لا بل أنا أدمن النصوص)

(سأحرص علي أن أُهديكِ نسخة من هذه الرواية إن التقينا مرة ثانية يا.....)

ردت وابتسامة تعلو ثغرها

(اسمي عهود عبدالله)

(وأنا يوسف محمد يوسف)

أضافت: (أنا أرتاد هذا المقهي كل يوم، يمكنك أن تترك لي الرواية مع سارة تلك النادلة وأشارت نحو الحبشية التي رفعت يدها ملوحة،

إن لم تجدها يمكنك تركها مع خالتي حواء التى تدير هذا المقهى)

(إن شاء الله سأحضرها معي لاحقًا).

(أنا أقدر لك ذلك يا يوسف)

رن هاتفي وكان المتصل صديقي كمال الذي دائمًا ما يتصل في غير وقته.

رددت عليه فأخبرني بأن ألحق به في المكتب الذي قدمنا فيه طلب تبني مشروعنا، تناولت الكتاب من علي الطاولة ولكن سمرتها وسهام نظراتها وبعض ارتباكي أوقع الكتاب من يدي، انحنت ومدته لي بابتسامة.

استجمعت شجاعتي وقلت لها:

(نقاء عينيك يخفيان حربًا محذوفة الراء.....)

(عليك مخافة هذه الحرب بعد حذف الحاء حتي لا تحترق)

هكذا كان ردها سريعًا وبدهاء كأنها قد فصلته وطرزته لتلبسه كلامي هذا.....

ذهبت وأنا أشيعها بنظراتي حتي دلفت خارج المقهي وأنا ألهث كأني كنت في حرب حامية الوطيث، لابد أن النظر إليها حرب ومحادثتها معركة خرجت من المقهي لكنها بدأت تتسلل إلي دواخلي بخطى بطيئة.....

التقيت بكمال أمام مبنى الشركة التي قدمنا فيها طلبًا لرعاية مشروعنا المصمم لتعدين الذهب بآليات حديثة ولكننا نحتاج لدعم هذه الشركة لنجاح الأمر، دخلنا الشركة وقدمنا كل الأوراق المطلوبة ولكننا طردنا بلباقة ودبلوماسية عوجاء وطلب منا الحضور بعد اجتماع مجلس الإدارة، خرجنا بخفي حُنين وكنا نتوقع هذه الإجابة مسبقًا فكل الشركات كانت تطلب منا نفس الشيء بعد الإشادة والثناء علي مشروعنا....

أصبح البحث عن شركة تتولى مشروعنا يأخذ جزءًا كبيرًا من وقتي ويتعارض مع عملي في الصحيفة، وقد ظهر ذلك جليًا وواضحًا في مقالي الأخير الذي تناولت فيه ظاهرة تزايد المشردين في المدن وفشل الجهات المختصة في إيجاد حلول ناجعة تُحول دون تفشي هذه الظاهرة.....

وقد يكون سبب ركاكة مقالاتي هو عدم زيارتي للمقهى، المقهى الذي كنت أرتاده ليس من زجل ارتشاف القهوة، بل من أجل مصادفة عهود ذات اللون البني المحمص الذي هو أشبه بالقهوة منه إلي الشيكولاته

وأكثر نعومة من الطماطم الناضجة .....

قبل أن أراها كنت أُكفر بالحب المبني علي جمال الفتاة لأني ولغبائي كنت أعتقد في ذلك قتلًا للجانب الروحي من العاطفة لكن بعد أن صافحت عيني جمالها أصَبحت أُدرك جيدًا أن الجمال هو البوابة الرئيسية للقلب في قوانين العشق.....

أتيت إلي المقهي بعد غياب استمر ثلاثة أيام بيد أنها بدت لي كثلاثة أعـوام، كنت أرغب في القدوم يوميًا ولكن الظروف حالت دون ذلك.....

جلست في مكاني المفضل وأنا في مواجهة المدخل حتي أكون أول من يعانق وجهها عندما يتسرب ضوؤها بالمكان لينير عتمته انتظرتها وأنا متأبطًا لهفتي وشغفي ودقات قلبي في حالة تناسب طردي مع عقارب ساعتي التي تتجه نحو العاشرة صباحًا، تأكدت من حزم كل لباقتي وذكائي في حقيبتي وأنا أنتظرها بلهفة أحر من حرارة ملاقاتها وأشواق أحد من رموشها، عندما طال جلوسي أخبرتني النادلة الحبشية بلكنتها المميزة بأن عهود كانت تأتي طوال الثلاثة أيام السابقة وتسأل عني وأخبرتني أيضًا أنها تركت لي رسالة، أخذت الرسالة من سارة وأنا أسمع دقات قلبي ونوافير الدم تنتفض وتضخ الدم في أوصالي بوتيرة متزايدة وكل خلايا جسدي تقف علي أمشاطها خلف عدسة عيني محاولة التلصص إلي ما تحويه تلك الرسالة.....

(إن لم تجدني اترك لي الرواية مع سارة).

هذا كل ما كتبته في رسالتها تلك....

لا أعرف لما شعرت بكل ذاك الوهن، أحسست بأني أوهن من بيت عنكبوت مشيد في طريق يعج بالمارة، كانت حروفها جافة، قاسية، متمردة، عندها انسكبت لهفتي وشغفي وتقهقرتا تحت قدمي، حينها تذكرت معانتي وأنا أحقب لباقتي وذكائي، لا أجد مسمى يناسب ردة فعلي العنيفة تجاه تصرفها الجاف.....

أخرجت الرواية وفي نوبة غضبي تلك كتبت علي الصفحة الثانية:

(أتمني أن تكوني بخير، وأضفت: ستجدين الرواية مع سارة، كنت أتمنى أن تسألي عني ثم الرواية ولكن خاب ظني.....

مع خالص ودي واحترامي

يوسف محمد يوسف)

أعطيت الرواية لسارة وأخبرتها أن تعطيها لعهود عند قدومها وخرجت هائمًا علي وجهي أبحث عما ينسيني خيبتي ولا أحد يجيد ذالك سوى كمال الذي يجيد انتشالي من أحزاني ويستر كل عيوبي دون أن يمل ذلك، غير أني لا أملك ما أتشاركه معه سوى كل أحزاني وبعض فتات الأفراح التي تتصدق علي بها الأيام عندما تمل رتابتها وبخلها، لذا اتصلت عليه مباشرة لنتقابل وأخبرني أنه سيوافيني في المنزل عندما ينهي بعض شؤونه الخاصة.....

عدت إلي المنزل وحاولت أن أجتاز حزني، لذا بدأت في كتابة مقال جديد لأشغل نفسي حتى يصل كمال ولكن وجدني ما زلت أجتر

ذكراها ، يبدو أنها قد صبغت نفسها بعناية علي ذاكرتي حتي أصبحت لا أقوي علي التخلص منها بكل ما تحوي من جمال تركت الكتابه لأنني بدأت أخرج خارج ما هو مطلوب، حاولت أن ألهي نفسي بمشاهدة التلفاز ولكن كأنني زدت الطين مطرًا أجدها ما زالت لا تفارق خاطري بابتسامة تظهر بريق وانتظام أسنانها بشكل هندسي ملائكي كافٍ لدحض نظرية النشوء الذاتي لداروين فلا يمكن أن تنظم الأسنان نفسها بهذه الصورة بل مستحيل أن ينثر الميلانين نفسه بنفسه علي بشرتها ويتوزع بالتساوي بتلك الكيفية بل وتتناغم سمرتها مع بياض أسنانها بتلك الصورة لابد بل أكيد أن هنالك إله وحيد أمر هذه المتناقضات بين كاف ونون بأن تتناغم وهي بذلك كائنة بأمره جل جلاله.....

انتظرت طويلا إلي أن حضر كمال، ثرثر كثيرًا كعادته ودخنت أنا أكثر من المعتاد عندما تقسو علي الأيام هل أنت بخير؟ هكذا يسألني كمال عندما يكون متأكدًا أني لست بخير فهو يعرفني كما يعرف كفه وكنت أجيبه بأني بخير ولكن هذا المرة بالذات أردت أن أكون صريحًا معه أنا قاب قوسين أو أدني من الخير كله ولكنني لست بخير ردي هذا جعل كمال يعدل من جلسته ويقوم بإيقاف قصيدة مصابيح السما التامنة وطشيش لمحمد الحسن سالم حميد

ويقول: (ماذا هناك ما الذي حدث هل خالك ثانية أم ماذا)

سؤاله هذا ذكرني بأن خالي قد عرض علي ابنته الوحيدة فطومة كي أتزوجها متعللًا بأني تخرجت منذ سنة وعملي جيد أستطيع الزواج فلماذا

لا أتزوج وقتها لم تُطِل عهود علي نافذة فؤادي بعد، لذا طلبت منه مدة من أجل أن أفكر في الأمر ولكن بعد أن أطلت تلاعبت بشبابيك قلبي ورمت بي في سجونها حتي نسيتُ أمر خالي هذا، لولا أن ذكرني كمال.

ظل كمال ينتظر ردي ولما لاحظت طول انتظاره قلت: (آه خالي لقد نسيت أمره لولاك).

(كيف تنسي مثل هذا الأمر يبدو أنك فقدت عقلك)

(أجل لقد جننت بها يا صديقي)

عندها ضحك كمال ضحكة مجلجة وهو يربت علي كتفي ويقول بسخرية: هل أعرفها .....

(لا حتي أنا لا أعرفها لكنني قابلتها.....)

قاطعني كمال ضاحكًا مرة أخري وهو يقول: هويتها فهويت.....

ذهب كمال يعد القهوة وهو يضحك كأنه لم يضحك من قبل كان يحب إعدادها أكثر من تناولها لأنه يرتئي أن طقوس إعدادها ألذ من متعة شربها....

لم يكن كمال يعير العلاقات الغرامية اهتمامًا أو الحبكانيات كما يفضل أن يقول، كان يرى في ممارستها سذاجة وخروجًا عن ما هو طبيعي.

حاولت أن أصحح منظوره للحب بصورة عامة ضاربًا مثلًا بصداقتنا التي لا تتعدى أنها نوع من أنواع الحب ولكنه اتهمني بالشذوذ وكاد أن ينسبني لقوم النبي لوط فعرفت أنه لا جدوى من إقناعه....

لذا لا يعتبر كمال حسب منظوره أن ما أمر به مرحلة تحولية قاسية

ربما أخرج منها بجروح وكدمات عاطفية ونفسية جسيمة وقد لا أخرج منها وهذا أضعف الإيمان.....

مر يومي ذلك بتثاقل ورتابة مملة دون أن يطرأ أمر جديد.

انتظرت الصباح بلهفة طفل يترجي قدوم العيد ليلبس ملابسه الجديدة.....

ذهبت إلي المقهى متأخرًا بعد غياب دام يومين مرا عليَّ كأنهما دهر كمال، دخلت وأنا أتجول ببصري بحثًا عن عهود ولما تأكدت من عدم وجودها جلست في انتظار النادلة الحبشية، فقد أصبحت ساعى بريد ونادلة، لا أحد يستطيع إخراجي من مأزقي هذا سواها إما أن تحضر عهود بنفسها وهذا محال، فالأمطار لا تأتى بدون سحاب وصيف هذا اليوم لا يحمل في فمه بشائر سوى الكآبة .....

حضرت الحبشيه بابتسامتها المصطنعة لزوم برستيج عملها، سألتها إن كانت عهود تركت شيئًا عندها أجابت بأن عهود لم تأتى بعد أن أخذت الرواية، ضربتُ الطاولة حتي انسكبت القهوة رفعت يدي معتذرًا من صاحبة المحل، تلك العتيقة خالتي حواء والتي هزت رأسها باسمة، بعدها قالت الحبشية:

(كلت ليك جواب بعد شالت الرواية....)

فهمتها بلغتها العربية المكسرة أنها تقصد(بكلت) أي تركت لي معها رسالة، كدت أن ألعنها أو أني لعنتها في نفسي ألف مرة، كيف تخفي علي خبرًا مثل هذا.....

انتظرتها إلي أن عادت وبيدها الجواب أخذته وقرأت كل ما أحفظ من القرآن ولولا أني بمكان عام لاستخرت الله قبل فتحه جمعت قوتي وفتحت الجواب الذي لم يكن يحوي سوى جملة واحدة (انتظرني إن كنت تريد مطلقة).

هذا كل ما كُنت أتلهف له، جملة لا تسمن ولا تغنى جموحي نحوهها استنتجت من رسالتها أنها مطلقة لكني استنكرت أن تكون ذلك، فمثلها محال أن تكون قد تزوجت مسبقًا ولم أسمع من قبل أن حورية قد تزوجت في الدنيا، ليس الإنس فقط بل وحتي الجان نفسه لا يستطيع طمسها لذا لم أقنع بأمر أنها مطلقة وإن كانت كذلك فإني أريدها لا يهمني ما سبق من حياتها.....

تركت لهفتي واشتياقي تحت الطاولة وحقبت حبي لها وذهبت.....

ذهب بعضي وما زال كل ذهني جاثمًا علي الكرسي في المقهى في انتظار مجهول، تدركون جيدًا ماذا يعني أن تنتظر مجهولًا لا تعرف زمن حضوره ولا تعرف كنهه حتي، لا يمكن أن تستدل عليه بمعلم يزيل عنك عناء الانتظار ليس عليك سوى انتظار المجهول الذي قد لا يأتي أو قد يكون ذهب مع قدومك عندها ستكون حالتك أشبه بغريق يربط آماله حتي بذبد الماء لينقذه، بيد أن الذبد لا يطفئ الظمأ دعكم من أن ينقذ غريقًا هكذا كانت حالتي إن لم تكن أسوأ.....

جلست في غرفتي وأنا أتجرع حسرتي وحزمة أسئلة تضاجع دماغي دون الوصول إلي مولود يرضي الطرفين.....

حاولت كتابة مقال الغد الذي لم أختر عنوانه بعد ولكن دون جدوى، وجدتني قد دخلت في معمعة مع كان وأخواتها وكانت لها الغلبة هي وأخواتها فالكثرة دائمًا تغلب الشجاعة.....

دون إنذار أو تفكير مسبق وجدتني قد كتبت مقالًا عن نظرة الشاب الشرقي للمرأة المطلقة لم أنتبه إلي الأمر إلا بعد أن خَلصت من المقال، هذا نتاج تفكري في عهود التي أصبحت تلتصق بذهني التصاق الوشم بالجلد

هكذا أوحى لي عقلي اللاوعي بكتابة ذاك المقال.....

أرسلت المقال للصحفية وتم قبوله ونشره علي غير العادة دون تعديل أي جزء منه، يبدو أن هذه المطلقة أو التي تدعى أنها مطلقة هي فاتحة خير علي.....

أكثر ما كان يشل تفكيري كيف لها أن تُطلق وهي بهذا العمر يبدو واضحًا جليًا من شكلها أنها لم تتخطَ الخامسة والعشرين من عمرها، كانت أشعر بالتقيؤ بمجرد التفكير بأنها مطلق، ولكني زجرت نفسي عن هذا التفكير الضحل الذي يقيم الأنثى بفشلها في زواجها السابق، فربما يكون الطلاق أبغض الحلال إلي الله ولكنه مع ذلك ليس من المحرمات أو حتي كبيرة من الكبائر، ربما كان الحل الوحيد المتاح لكي تستمر الحياة، إذن لماذا كل هذا النقيق في آذان المطلقات أم هو الاعتياد علي العادات وتغليفها بلحاء فطري لتبدو كالعبادات، تبًا لكل هذا اللغط الذي يحول دون اتحاد روحينا.....

هكذا كانت تدار المناوشات في رأسي بين العادات والعباداتبين ما أراه صحيحًا بمنطقي وما يتمناه لي المجتمع الذي لن يضره شيء في نجاحي وفشلي وبين عقلي الواعي واللاواعي ولم يكن لي خيار غير أن أكون محايدًا حتي لا أضيع بينهما قتيلًا أو قاتلًا وفي كلا الحالتين أنا الخاسر الوحيد، لذا وكلت أمري لله ليختار لي ما يناسبني ونمت بعد ذلك دون أن أغازل النوم.....

استيقظت من النوم علي صوت هاتفي الذي كانت موسيقاها تملأ المكان ضجيجًا فتحتت الخط وأنا مغمض فأتاني صوت كمال منفعلًا:

(ياخ دقيت ليك مئة مرة ما بترد، أضاف بعد أن تنهد تنهيدة كافية لتجسيد معاناته، أنا واقف في الباب لي ساعة تعالَ افتح الباب كرهتنا البيت زاتوا....)

تبًا فقد نسيت أن كمال ترك نسخة المفتاح خاصته عندي، فتحت الباب وأنا أفكر أين نام ليلته السابقة وهو لا يعرف أحدا سواى في هذه البلاد، فكل أهله في جنوب كردفان وعندما أود مناكفته كنت أصفه بالمقطوع وكان يضحك وهو يعدد لي عشيرته التي تسد عين الشمس في منطقته.....

وقد كان يقول إن أقاربه لا يفضلونا مفارقة جبالهم تلك حتي عندما يشتد المرض علي أحدهم يفضل الموت وسط أهله لأنهم يعتقدون أن من يفارق تلك الأرض لن يعود إليها إلا جسده، سيعود ميتًا لا محالة فقد عدد لي الكثير من

العجائز الذين ماتوا ما إن فارقوا أرضهم تلك.....

دخل وهو يضربني كعادته عندما يغضب حتي أزال أثر النعاس من عيني سألته أين نمت البارحة.....

(مشيت لبيت خالك نص الليل...)

أومأت برأسي دون أن أضيف شيء لكنه أخبرني بأن خالي يسأل عني، وابنة خالي فطومة كادت أن تأتي معه لولا أنه قال لها إنه ذاهبًا إلي العمل،

حمدت الله أنه لم يأتي بها إلا لوضعني في مأزق أنا في غنى عنه.....

خالك وبتوا قاافلين عليك يا يوسف....

كنت أتوقع هذه الجملة من كمال

(قلت: والله لو عندهم خمسة جواكر ما ح ينزلوا....)

(ياخ عرس البت وريحنا... الناس ديل ما قصروا معك زمن كنت في الجامعة، خاصة بت خالك دي شايلك من الأرض شيل)

انتظرته حتي أكمل حديثه، فأخبرته أنني لا أنكر ما قاموا به تجاهي أثناء دراستي أتذكر اهتمامهم بي ولكن الزواج ليس لعبة، ليست التضحية المناسبة لما قاموا به تجاهي لم أكن مستعدا أن أقدم علي تلك التضحية التي ستنتهي بالطلاق حتمًا، عندها سيحدث ما لا تحمد عواقبه أو بالأحرى لم أرد أن أفقد عهود التي لم تدخل إلي جرابي بعد لكنها تسكنني.....

أبعدت هاتفي وجلست في الكرسى المقابل لكمال وأنا أوجه له

حديثي أنت تعرف جيدًا أنني لا أتواني ولا أسأم في تنفيذ طلباتهم مذ عرفت الدنيا وجدتهم أمامي ووقتها كانت والدتي قد فارقت الحياة ووالدي إلي اليوم في المهجر يتصدق علي ببعض اتصالاته من حين لآخر، لذا هم ما تبقي لي في الدنيا ربت علي كتفي وهو يردد

(ربك يهون ربك يهون.....)

كسرت صمته وأنا أقول

(الزولة طلعت خاله)

(منو دي كمان)

(عهود)

أجحظ عيناه وهو فاتح فمه من هول الفاجعة، اقترب مني وهو يحمل الحليب الذي كاد أن ينسكب منه وهو يقول

(خاله عديل كدا؟؟؟؟؟)

رفعت كلتا حاجبي وكتفيَّ دون أن أتحدث

قال وهو يضحك: (صايم عمرك كلوا وتفطر بي عدسية)

في إشارة منه إلي عدم عذريتها

ابتسمت ابتسامة باهتة، وأنا أغمغم ببعض الجمل التي كنت حريصًا على أن لا يسمعها..... .....

خرجنا بعد ذلك قاصدين الشركة التي قبلت بمشروعنا التعديني وهو لم يكن المشروع الشبابي الأول من نوعه بالبلاد لكن مثل هذه المشاريع دائمًا تجد الصد بحُجة ضيق الميزانية المحدد لذلك ولكننا اتجهنا

للقطع الخاص الذي ماطلنا كثيرًا وسمعنا ما لا يقوى أطرش علي سماعه وبعد طول انتظار ومصابرة حصلنا علي مرادنا.....

دخلنا إلي الشركة واستقبلتنا السكرتيرة هذه المرة ببشاشة وطيب خاطر واحترام لم تظهره لنا المرة السابقة أو بالأحرى أظهرت عكسه تمامًا.....

أدخلتنا السكرتيرة إلي المدير دون انتظار وكان واضحًا أن المدير في انتظارنا، رحب بنا ترحيبًا حارًا علي غير عادة المدراء الذين نعرفهم كأكفنا أو أكثر....

بدأنا في المفاوضات ولكن المدير فاجعنا بأنه لن يقبل شراكتنا معه في هذا المشروع، ولكنه سيشتري منا مشروعنا ويطبقه بطريقته، طلبنا منه أن يمهلنا ليومين لندرس الأمر، غير أننا قد قررنا أن نبيعه مجانًا إن تعقد الأمر أكثر من ذلك، لكن طلبنا لتلك المدة لم يكن إلا حفاظا لهيبتنا وإعطاء المدير انطباعًا بأننا متمسكون بمشروعنا هذا، وقد كنت أجيد ذلك بامتياز حيث اكتفي كمال بهز رأسه تأييدًا لكل ما قلت وأثناء خروجنا جاءت السكرتيرة بالقهوة ولكنني حاولت أن أعتذر عن شربها واكتفيت بالماء فقط، بيد أن كمال طلب مني الجلوس وشربها.....

كدت أضحك عندما انتبهت إلي السكرتيرة التي بدت كأنها عود بداخل ملابسها التي ظهرت فضفاضة عليها من شدة النحافة عندها عرفت سبب إصرار كمال للجلوس وشرب القهوة، فهو من القلائل الذين يفضلون الأنثى كلما زادت نحافتها لا أعرف أي عشق هذا

الذي يجعله يعشق فتيات لا يمكن لأحرف جزار أن يخرج منها نصف كيلوجرام من اللحم، صح من قال إن حب الناس مذاهب .....

كان يقول إنه يفضل النواشف عما سواهن من الفتيات يري فيهن تغشفًا عن الطعام والنوم ولكنني أخبرته أن فطومة تالك ليلًا ونهارًا وتنام ملء عينها ومع ذلك هي من النوع الذي يطلق عليهن لقب حطب الله عبد الناشف كر هكذا كان كمال كل أشياءه غريبة....

ارتشفنا القهوة وكمال يراقب السكرتيرة المتيبسة ببصره حتي كاد أن يخترقها فعضلاتها لا تتحمل وخذ نظراته تلك....

خرجنا علي اتفاق أن نبيع المشروع لهذه الشركة.

وافق كمال وهو يقول: (الزول أبو كرش دا ببلعنا بي مشروعنا أخير نبيع ونريح ونستريح)

وفي طريق العودة اشتريت الصحيفة خاصتنا وهذه أول مرة أقدم علي

هذا الفعل منذ بدأت الكتابة فيها.....

ذهب كمال للبيت واتجهت أنا صوب المقهى ملاذي الوحيد المكان الذي يمكنني فيه إيجاد عهود ونفسي.....

دخنت خمسة لفافات سجائر وأنا في الطريق إلي قدري الذي أصبحت أحس بأنه بات قريبًا مني أقرب إلي حتي من ظلي....

كانت دقات قلبي تزداد كلما اقتربت من المقهي ويتعثر تنفسي تبًا للأدرينالين الذي لا يجيد سوى إفشاء سر العشاق ....

دلفت إلي المقهى وأنا أجول ببصري كعادتي بحثا عنها ولكن دون جدوى، لم تكن موجودة، جلست وأنا ممسك بشدة بالجريدة، كنت خائفًا من فقدان دليل حبي الوحيد الذي سيعلن مولد غرامي دون غرامات وفقًا لقانون الفتيات الذي ينص على التضحية من أجلهن للفوز بقلوبهن، كان لابد من دفع المقابل أولًا والذي يمكن أن يكون الثناء عليهن والذي هو حق شرعي، لكن الأنثى تتعامل معه كجواز مرور لقلبها.....

أحضرت سارة القهوة، شكرتها دون أن أناكفها أو أتبادل معها الحديث(عهود كانت تحضر طوال الأيام السابقة وكانت تطيل الجلوس علي غير عادتها.....)

جملة سارة هذه صبت الزيت علي ناري

شكرتها وأنا أبتسم لكي أخفى لهفتي وفرحي لسماع جملتها المبشرة، لا أعرف لماذا نعمل جاهدين من أجل تغليف شجرة الحب بلحاء سميك مخافة أن يعرف الناس، نجتهد في إخفاء حبنا النرجسي وإن أظهرنه نظهره متعري، نركز علي الجانب الشهواني فيه رغم أننا في مرات كثيرة نظهر بغضنا وكرهنا لبعض الناس دون مواربة، هكذا نحن نظهر السلبيات فقط، أعطيت الجريدة لسارة وحملت ما تبقي لي من فرحة وخرجت مسرعًا قبل أن تفوح رائحة الإدرينالين وتفضح أمر عشقي .....

خرجت بفرحة عارمة لا تضاهيها فرحة، بل هو شعور لم أجد له

مفردة في ذاكرتي تناسبه شيئًا كلذة الاكتمال .....

في هذه الأثناء تصيدت أذناي صوت همهمات قادمة من خارج المنجم قفلت دفتر المذكرات ووضعته تحت وسادتي بدأت الهمهمات في ارتفاع والاقتراب، اقتربت الأصوات كأنها قادمة من مدخل البئر الخاصة بنا

بعدها سمعت شخصًا ينادي

(آدم .....آدم ....آدم أنت قعاد جوا....)

أجبت بنعم

دخل مجموعة من عمال المنجم رفقة الجلابي ود الملك صاحب البئر خاصتنا، جلس الجلبي بينما ظل بقية العمال واقفين تنهد الجلابي ود الملك بعد أن قام بصرف بقية العمال هو يقول: (أي زول يشوف شغلتوا....)

خرج الكل وبقينا لوحدنا، لم أكن أعرف سبب قدومه لذا كنت مذهولًا من حضوره دونما سبب يذكر حتي حصته في الورديات يستلمها آخر اليوم إذن ما الذي أتى به في هذا الوقت قطع استرسال أفكاري وهو يقول بصوته الذي يحدث دويًا بالمكان:

(شوف يا آدم ما داير معك لف ودوران أنا بسألك وأنت جاوب بصراحة إوعاك تكذب على....)

(في شنو يا جلابي خاشي فيني شمال طوالي)

لم يجب علي سؤالي:

(أنت صحبانك كمال ويوسف جو هناعندهم شنو....؟)

(أولًا يا ود الملك هم ما صحباني لقيتهم في المنجم دا بس
ثانيا أنت عارف الناس بتجي المناجم لي شنو)
أردفت دون أن أنتظر رده أكيد جو للدهب .....
قال الجلابي وصدره يعلو ويهبط:
(الناس ديل جو يعملوا دراسة عن تعدين الدهب في قردود تورو، مرسلاهم المملكه المتحدة ولا شنو كدا ما عارف)
صححته وأنا أخفي ابتسامتي الساخرة على جهله
(اسمها الأمم المتحدة.....)
(ودي تطلع شنو؟.....)
(هي منظمة دولية بتهتم بالبيئة والكوارث والحروبات وكدا يعني)
(نحن هنا ما عندنا لا حرب لا كوارث....)
قلت له موضحًا:
(عندنا بيئة ما تنسى الجبل أنت قايلوا شنو يا الجلابي)...
احمرت عينا الجلابي كأنهما جمرة مستعرة، يبدو أن لهجتي الحادة لم تعجبه....
بصق سفته وهو يقول:
(المهم يا آدم أنت كنت عارف الموضوع دا....؟)
(لا والله يا جلابي معقول أكون عارف وما أوريك شينه منك لكن تطلعني جاسوس.....)
اعتذر مني الجلابي ود الملك وخرج، بعدها تذكرت موضوع مشروع

التعدين الذي قرأته في مذكرات يوسف

يبدو أن يوسف كان يحاول إجراء دراسات من أجل مشروع آخر أو ربما طَلبت منه الصحيفة كتابة مقال عن المناجم لابد أن أكمل المذكرات حتي أعرف سبب قدومه إلي المنجم .....

أخرجت دفتر المذكرات وبدأت في القراءة.....

لم أجد وصفًا لفرحتي تلك فهي أكثر لذة من السعادة الكاملة أو السعادة القصوي التي يسميها الهندي بوذا بالنيرفانا أجل لقد وجدت الكلمة المناسبة لحالتي تلك لقد كان شعور نيرفاني...

وصلت البيت ووجدت كمال قد سبقني بساعة وهو ينتظرني لتناول وجبة العشاء، تناولت العشاء بطعم لا مبالاة كمال ونكهة ثرثرته عن العمل وبعض فتياته التي يشبهنا عود الأراك في التيبس والجفاف....

ما هي إلا دقائق بعد العشاء حتي بدأ شخير كمال يعلو، هو كذلك ينام في كل مكان دون انتظار، أقصي زمن يمكن أن يظل مستيقظًا فيه لا يتعدي عشر دقائق بعد وضع رأسه علي الوسادة عكسي تماما فقد أخذت ساعات في مغازلت ومراوضة النوم عن نفسه ولكنه يظل يتمنع إلي ما قبل الفجر ثم يرضخ بعدها .....

فلا غرابة في أن تتمنع على عهود فكل الأشياء تأتيني مؤخراًحتي اسمي تم اختياره مؤخرًا بعد قدوم أبي من العراق بعد حوالي إحدى وعشرين يومًا، بعدها تمت تسميتي أو بالأحري تم تغيير اسمي .....

أدرت مشغل الهاتف وأشغلت قصيدة الجريدة بصوت محمد الأمين،

بدأ الصوت ينساب إلي دماغي بسلاسة.

سارحة مالك يا حبيبة

ساهية وأفكار بعيدة

بقرا فى عيونك حياتى

وعاملة مشغولة بجريدة ...

بتقرى فى إيه.. كلمينى يا سلام ..

مهتمة عاملة ...

يعنى لازم تقرى هسه مقال ..

بحاله قصة كاملة ...

كم شهور مرت علينا وبينا بعد ...

فرقة شاملة ..

العيون رويانة تبكى.. والقلوب مشتاقة آملة

أى حاجة تمر.. بخاطرك قصة أو أخبار جديدة ..

عندى ليك خبر أهم.. جايبو بأشواق شديدة..

اسمعى وطوعينى مرة

أيوه ما تخليك عنيدة

عايز أقول لك

ولا سيبك أقرى أحسن فى الجريدة

عايز أقول لك.. ليه أقول لك.. ما بقول لك

مش مخير

ساعة مرت ساعة وأكتر .. والوقت روح تأخر
زى عنادك .. عايز أعاند .. لكن يظهر ما حأقدر
عايز أقول بحبك يا وحيدة..
بقرى فى عيونك حياتى
وعاملة مشغولة بجريدة...

قمت بتحديد الأغنيه وتكرار تشغيلها وتركت الصوت يتخلل صيوان أذني ليداعب صوت المسيقار طبلة أذني، ولكنني تركت بيانات الهاتف مفتوحة لذا كثرت رنات الرسائل التي تحول دون استمرار الأغنية أخذت الهاتف لقفل شبكة البيانات لكنني وجدت ثلاث رسائل علي حسابي، لا شعوريا أغلقت مشغل الموسيقى ورحت أطالع الرسائل كانت هنالك قوة خفية تدفعني دفعًا لقراءة الرسائل مع أنى لا أهتم بالمسجات كثيرًا فتحت أول ثلاث رسائل دون قصد (مقال أقل ما يقال عنه جميل بقدر كاتبه .....يبدو أنك مصر علي المطلقة ..... لا تنسي أن حروفك شهية وتحفزني للقراءة....)

آاخر ما وقعت عليه عيناي كان اسم المرسل عهود عبدالله قرأت الرسائل وأنا مستلقي وما إن رأيت الاسم حتي قفزت عاليا وجلست في منتصف السرير وأنا أتاكد من اسم المرسل، كدت أن لا أصدق بصري لذا تأكدت للمرة الثالثه من المرسل .. ....

لم يسع السرير فرحتي فقفزت منه لمنتصف الغرفة وأنا أردد أغنية الجريدة بمتعة....

تذكرت أني لم أرد علي رسائلها فقفزت ثانية إلي السرير كثرة قفزي ذكرتني بداروين وقروده ونظريته التي دحضتها عهود بتقوس رموش فقط .....

كتبت الكثير من الردود علي رسائلها لكنني كنت أقوم بمسح ما كتبته لأنه لن يلفت انتباهها أو بالأحرى لن يعجبها كنت مشوشًا من رسائلها فقد أحدثت فوضى بداخلي يصعب علي تنظيمها .....

(لقد انتظرتك كثيرًا في المقهى ولكنك لم تأتِ فتركت لك بعض بقايي التي هي نتاج قذائف عينيك أشكرك علي الثناء والإشادة بمقالي إن كنت مطلقة فقلبي يتيم فأنت أولى بهذا القلب من دور التربية.....

ما زلت أنتظر نامي بسلام .....)

ضغطت علي رز الإرسال وأنا مغمض العينين هذا كل ما أستطيع كتابته بعد الكثير من الشطب والكشط، أغلقت بيانات الهاتف لكي أنام ولكنني لم أنم إلا عندما صافح أذان الفجر محارة أذني، لم أكن أعرف أن الظلام يفضل أن يتمشي علي حافة قلوب العشاق ليقلق سكينتهم ويتسلى بأنغام آهاتهم الواهنة.....

الفصل الثالث

((الحب مثل الماء لا يترك مجاريه أبدًا ..)

سراج الأمين

استيقظت متأخرًا كان وقتها كمال قد استعد للخروج، أعددت الحليب تناوله علي عجل وخرج بعد أن أخبرني بأن اليوم يجب علينا الذهاب إلي الشركة لحسم أمر بيع مشروع التعدين....

ضحكت وأنا أخبره بأنه بعد حسم هذا الموضوع لن يجد سببًا للذهاب إلي تلك السكرتيرة الجافة التي كأنها ولدت في عام الجفاف، ذهب وهو يضحك وقبل أن يرد علي حديثي رن هاتفه خرج وهو يلوح دون أن يرد.....

كانت شوكة الساعة تزحف نحو الثامنة صباحًا عندما فتحت الهاتف وقمت بفتح شبكة البيانات كان انتظاري لنزول الرسائل كانتظار سلحفاء عرجاء قادمة نحوي من الاستوائية، احتمال أن تصل ضئيل جدًا وإن وصلت ستصل بعد قرن من تحركها ووقتها ستكون فقدت ذاكرتها وتخمر النبأ الذي تحمله إلي.....

تبًا للانتظار انتظرت كثيرًا إلي أن تنزل الرسائل الجديدة كنت أربط حياتي بتلك الحروف التي ستنفذ من خلال الشاشة وتستقر في صدري إلي أن تموت كل خلية في جسدي جراء الخدر الذي ستحدثه حروفها

بكيمياء جسدي....

كانت رسائلها آخر الحضور، مسك الختام فتحت الرسائل بشغف ولهفة....

(صباح الخير ....سأنتظر مقالك القادم بشغف لقد نسيت أن أشكرك علي الرواية فقد كانت جميلة حقا سألت عنك سارة ولكنها قالت إنك لم تأتِ منذ يومين فتركت لك معها رسالة أتمنى أن تقرأها أنعم بيوم جميل يا صديقي...)

هذا جل ما كتبته في ثلاث رسائل متتالية، وأكثر ما زاد توتري وجود النقطة الخضراء التي تعني أنها نشطة الآن

(صباح تراسليني فيه لابد أن فيه الخير كله، سأمر عليها لأخذ الرسالة فقد اشتقت لطريقة كتابتك للنون في نهاية الكلمة صديقك؟؟؟؟

يا بخت صديقك بك)

ضغطت علي زر الإرسال وجلست أنتظر وقتها اتصل أحد الزملاء الذي ينشط في الصحيفة التي أعمل بها يخبرني ببعض المستجدات، لم أرَ له مثلًا سوى ذبابة تقع في كوب حليب ساخن، فضلت أسخطه في نفسي إلي أن انتهت المكالمة، لقد أطفأ لهيبي وتوهجي فبالتأكيد ستتوقع أني غير نشط الآن لذا استدرجته لإنهاء المكالمة دون أن أعير مستجداته التافهة عن الإمساك بأحد الزميلات يفتك بعرض إحداهن اهتماما كثيرًا.....

غفلت الخط وكاد هاتفي أن يقع علي الأرض لولا ستر الله، عدت للرسائل فوجدت أن النقطة الخضراء قد اختفت لا بد أنها تتلذذ بتشويقي، تستمتع بكي ظهري بلهيب انتظارها سببت زميلي أشد السباب وأنا أُرجع السبب إلي اتصاله غير اللائق في هذا الوقت فهو فأر حقًا لم يكذب البعض عندما ينادونه بفار، فار يجيد إقلاق مضاجع عاشقين يتسامران علي سطح كوكب الزهرة، ليس ورائي شيء قبل الساعة الثانية عشرة فأمامي ثلاث ساعات، علي زيارة الشركة لذا سأذهب إلي المقهي قبل الذهاب إلي الصحيفة ربما أجد بعضًا من رائحتها.....

خرجت علي مضض متجهًا صوب المقهى وأنا أطالع عناوين الصحف من خلال جوالي....

كانت الحافلة مزدحمة كعادة المواصلات في العاصمة رغم أنني نادرًا ما أستقل المواصلات في مشاويري، لكن اليوم كمال خرج بالعربة فلا حل آخر سوى المواصلات.....

بعد جهد جهيد وبذل كل غالي ونفيس حجزت لي مقعدًا في الحافلة وأنا أنتشي بفرحة الانتصار كأني دونت اسمي في حافلة متجهة إلي جنان الفراديس...

حمدت الله وقررت أن يكون مقالي القادم عن صعوبة المواصلات وارتفاع أسعارها..

دلفت إلي المقهي جملة واحدة ودون أن أسترق النظر قبل الدخول

لأني كنت أعرف مسبقًا أنها ليس بالمقهى ولكن كانت الفاجعة التي يشيب لها الولدان أنها عهود أو هكذا ارتأيتها، خفت أن يكون بصري يضل معالمها ويخطئها ولكن حتي رائحتها المميزة التي يصعب علي كل باريس تصنيعها تملأ مناخيري وهذا ما يمكنني من معرفتها وإن كنت مغمضًا....

كانت تصب كل اهتمامها علي هاتفها شاشة هاتفها الانتهازية كانت تستمد الإضاءة من عينيها...

اقتربت منها بحذر لكي أصب الزيت علي النار المشتعلة داخلي، لم تنتبه لوجودي وقفت خلفها وتلصصت إلي الهاتف لقد كانت تقرأ رسائلي التي أرسلتها صباح اليوم كدت أقع من طولي مغشيًا علي من فرط بهجتي.....

(سلام عليكم ليتك أخبرتيني أنك موجودة)

قالت وهي تحاول ضبط ابتسامتها التي كادت أن تصبح ضحكة مجلجلة (أحببت أن أترك مساحة للصدفة)

(الصدفة ساقتني إليك مكبلًا)

أشارت بيدها التي تحيط بها ساعة نسائية بنية اللون أقرب إلي سمرة بشرتها وفي تناغم مع حذائها الجلدي البسيط الذي لم أتفحص ماركته، كانت أجمل من الجمال نفسه....

تنهدت وهي تسألني: (أكيد قهوة)

(يكفيني شرف الجلوس رفقتك....)

لم تعر حديثي اهتمامًا

أشارت إلي سارة برفع سبابتها والخنصر مما يدل علي إشارة كوب ولم تكن تحتاج لتوضيح أكثر فسارة تعرف ماذا أشرب.....

كانت المرأة تتجلء في حركاتها وكثرة تململها وتعديل خمارها مع مطلع كل دقيق، وانشغالها المتكرر بهاتفها من أجل إلهى وتبديد ارتباكها الذي تفوح رائحته.....

كنت أقول في نفسي فتاة بهذه السذاجة والبراءة يستحال أن تكون قد تزوجت من قبل، لا يمكن أن يكون أحد سبقني بمضاجعة قلبها لا بد أن أكون أول طارق علي بابها لا يهم أن تدخلني أو أكون أول المطرودين، ففي كلا الحالتين سيكون قميصي قد قُد من قبل كنت أعرف أن الرجل إذا استطاع أن يضحك الفتاة يستطيع أن يسلبها قلبها.....

أتت سارة بالقهوة، سلمت علي وهي تقول:

(أخيرًا التقيت بها .....)

أضافت وهي تذهب

:(تتشابهان جدًا ....)

استغلت عهود حديث سارة ورمت الكرة بملعبي

(هل حقًا نشبه بعضنا....؟)

(لا يا عهود لكننا نكمل بعضنا....)

بعدها حفنا صمت رهيب كأننا أعددنا له من قبل، لم نكن نتحدث

يبدو أننا تركنا قلبين يخفقان ليتعرفا علي بعضهما أكثر، فهنالك حالات لا يجدي فيها الحديث بقدر ما تكون الجوارح أكثر بلغتنا وحنكتنا في الإفصاح عما يدور بذهننا، ولما طالت فترة الصمت احمر وجهها وكاد الدم أن يهرب من أوعيتها الدموية وهي تقول:

(حدثني عنك ....)

كنت أعرف مدي صعوبة أن تدع فتاة تدير دفت الحوار لابد أنها ستعاني كثيرًا

«ألا يكفي أني أحبك ....»

ردت وهي تداري جبينها بكفها الأيسر

«وهل ترفض طلبًا لمن تحب ....»

(بالطبع لا .....)

بدأت في السرد وأنا أتابع تعابير وجهها، لم أدع شاردة أو واردة تهمها إلا وقلتها، حدثتها بثقة وصراحة كأني أحدث نفسي...

ركزت علي أن أُحدثها عن ما تريد أن تسمع فعيونها لم تكن تعرف الكذب شفافة تعكس انفعالاتها فقد كنت أغير بعض الأحداث عندما ألاحظ ضيق حدقتها وأضيف الإثارة عندما أري غمازتيها الاثنتين معًا.....

لقد وضعت كل خبرتي ولباقتي ودبلوماسيتي لكي أفوز في تلك المعينة الوظيفية التي لا ينافسني فيها أحد لكنني أريد أن أجتازها بامتياز وهذا ما كان....

قاطعتني دون أن أكمل حديثي بصورة عوجاء متمردة ضاربة بحيائها أرض الحائط (لقد اطمأن قلبي لك منذ الوهلة الأولي، لا أعرف هنالك شيء يشدني إليك ويلوي لساني عن الحديث، لا أعرف ما هو ربما هو حب استطلاع لا أعرف).

قلت بشيء من الدهاء:

(قد يكون الحب هو الطارق علي نافذة قلبك بكل عنفوانه وجنونه فلا ترددي في أن تفتحي النافذة وتدعيه يتغلل في قلبك حد التشبع.....)

قالت وهي تمسد ظهر كفها:

(النافذة مفتوحة علي مصرعين فقط ...)

قاطعتها

:(إذن سأقفز منها جملة واحدة....)

قُلت ذلك وأنا أمد إليها بهاتفي لتسجل رقمها....

حصولي علي رقم هاتفها كان انتصارًا من نوع آخر لم أتذوقه من قبل

بعدها قامت وهي تقول: (أنام مبكرًا كالعادة لكنني سأنتظر اتصالك اليوم....)

أضافت وهي تنتصب ليظهر خصرها في أبهى تجلياته، اعتدال قامتها، لم تكن واقفا قنا علي حد قول الشباب بل واقف سيخ فالسيخ أكثر اعتدالا ومرونة من القنا

(لا تنسَ أن تأخذ الرسالة والرواية من سارة.....)

ذهبت دون أن تودعني حتي، هكذا هي تبهرني في النهايات أو بالأحرى تُقيم حديثي معها ثم تفند كل آرئي نحوها لم أكن أستطيع التنبؤ بتصرفاتها .....

بردت القهوة وفقدت مذاقها ففي حضورها لا مذاق لشيء سوى حديثها الحلو في نهايتة وتسبقه مرارة ونكهة القهوة، انتبهت إلي شعري المجعد الذي ربما أثار حفيظتها ولكنني عرفت لاحقًا أنه الوحيد الذي كان يعجبها ويشدها نحوي إن صح التعبير، لديها شبق لا متناهي لكل ما هو مبعثر ...

عدلت أوتار قلبي التي تداخلت في بعضها واستعدت بعض وقاري الذي بدا لي حملا وديعا في حضورها الطاغي ....

طلبت كوبًا آخر فالكوب الأول ما زال يحملق في وجهي بغضب لإهمالي له.....

أخذت الرسالة والرواية، لم أكن متوجسًا هذا المرة فما كنت أراه سرابًا بقيعة لم يكن إلا عهود بعد أن اقتربت أكثر، تحسست الرسالة قبل أن افتحها فأجدها ثقيله يبدو أنها وضعت فيها كل زخيرتها اللغوية من المفردات بعد أن طرحتني قتيلًا بسهامها، لم أكن أحتاج إلي رسالة كي أُعتقل فأنا هاوٍ لمعتقلاتها....

فتحت الرسالة بتهكم وغطرسة كأنني أعرف ما تحويه، ورائحة المطر تملأ أنفي.....

(ها قد عدت إلي مجددًا وأنت لا تعرفني....

خمس سنوات من البحث وعندما وجدتك لم أتعثر في التعرف عليك فما زال شعرك بعشوائيته التي أحبها غير أنك بديت لي أكثر أناقة في مظهرك وحتي راحت يدك ما زالت تحتفظ بخشونتها التي أعرفها منذ أيام الثانوية....

لم يتغير شيء يا جدو فكل شيء كما تركته غير أن غبار السنوات قد حط رحاله علي ملامحك فبدوت أكثر هيبة ووقارًا أما زلت تتذكر قصصك وحكاويك عن ودبرق...

القماري....

الأرانب البرية والثعبان أب درق ..

الأصلة....

السحالي ...

الورل ....

أبو القفند ...

المرفعين ....

شجر التبلدي...

الدليب ...

طيور السمبر ...

والنسر كلدينج أبو صلعة يبدو أنك نسيت تلك الأيام الجميلة، كنت أكتشف من خلالك البادية وأكشف أغوارها وكنت تري من

خلالي أبراج الأزدهار والتطور ....

أنت أول من دك حصوني وسلب قلبي عذريته وآخرهم أيضًا، أكثر ما كان يضحكني عندما تقول إني متفلسفة لم تكن تستطيع أن تنطق كلمة فلسفة كانت تقول فلفسه....

هل ما زالت فطومة تشاركني فيك أو أنها أخرجت جيوشها من أراضيك أو أنك رفعت الراية البيضاء، كنت أسألها عنك طول فترة اغتراب أبي عندما تتسني لي الفرصة للحديث معها في مرات اتصالنا القليل بأسرتها....

فقد كانت العلاقة وطيده بين خالك وأبي، أماي وفطومة فلم يكن صديقات، فقد كنا أكثر عداوة مما تتوقع أو ضرات فأنا لا أقبل المساومة فيك أو المناصفة ....

انتبهت إلي طريقتي المميزة في كتابة النون ولكنك جهلت ملامحي، حتي أنوثتي التي اكتشفت مكامنها لم تتعرف عليها ستظل هذه الأنوثة ساخطة منك إلي آخر نوبة شبق في حياتي، أماي فلم أتزمر منك يومًا....

بحثت عنك كثيرًا في كل مواقع التواصل الإلكتروني ولم أجدك، كنت تسكنني طوال فترة غيابك، حضورك المفاجئ بعثر أوراقي وغيابي عنك من قبل دون إرادتي جعلني باهتة فاقدة لكلما يميزني....

بحثت عن كل ما له صلة بك ولكني لم أجد إليك سبيلًا لابد أنك لم تبحث عني لأنك لم تكن تحبني من قبل أو لم أفصح عنه وإن كنت

قد فعلت ذلك كثيرًا لكنك لم تكن تنتبه لدخان غيرتي الذي يملأ غرفة المذاكرة عندما ترضخ لطلبات بنت خالك فطومة....

قطع علي هاتفي قراءة الرسالة

كان المتصل كمال لابد أن أرد عليه ....

(جاي عليك يا كيمو ...)

ثم قفلت الهاتف....

كنت تصر علي أنك ستدرس الفلسفة أو الفلفسة علي حد قولك لقد تمنيت وقتها أن أكون أحد الفلاسفة أو مثل الفيلسوفة الفرنسية سيمون دبوفوار التي لم أكن أعرفها وقتذاك .....

كان حلمك لكنني درستها من أجلك فقط عساي أجدك في عزلتي تلك في إحدى القاعات الدراسية ولكن هيهات هيهات.....

تذكر أني لم أنتظرك كل هذه الفترة لكي أتزوج، كنت أمزح فأنا لم أتزوجك بعد وأعرف أنك ستفعل.

محبتك دومًا عهود (الشيطانة كما كنت تفضل أن تقول)

أحسست بأن الأرض تدور من تحتي وصقر الجديان ينهش مخي دون أن أهشه وأشواك الحسكنيت تنمو علي جسدي، شعرت بنوبة برد تمسخ جلدي مسخًا تعيد علي شريط حياتي في حلقات متسارعة.....

صدق من قال إن الأنثي مثل شجرة العشر تنمو سريعًا وإن لم تجد ماء، ولكنها حتمًا ستسقى كل ظمآن وهي في طريقها للبحر.....

كيف لتلك الشيطانة الصغيرة أن تغدو بهذا الهدوء والجمال، هل

كانت جميلة منذ طفولتها أو أني كنت أنظر إليها بعيون لم تبلغ الحلم بعد والآن أُزيلت غشاوة الطفولة، ونظرت إليها بعيني رجل عركته الحياة، من المحال أن يدوم حال، ألا لما أصبحت تلك العيون الشقية بهذا الصدق أم هي خدعة الجدائل الجنية التي جعلتها بهذا البهاء ...

كيف لم أعرفها أو حتي أتذكرها رغم أني لم أنسها....

كثرة اتصالات كمال جعلتني أتجه إليه وذهني مشغول

بدراماتيكية شيء ميتافيزيقي يأتيني من أثير لا متناهي ...

هذه ليست صدفة بل القدر إنه القدر لا محالة....

الفصل الرابع

«لوحدك تدركينا أن جسد الفاجعة أوسع من جلباب القصيدة»

أزهري محمد على

دخلنا على الشركة ومازال كمال يهيج متزمرًا من تأخري لكني أكتفيت بالصمت فما يدور بداخلي لا يوصف.

أكملنا موضوع بيع المشروع لكن المدير اشترط علينا الذهاب لتنفيذه في منطقة قبقب لتعدين الذهب والتي تقع بالقرب من أبو حمد....

حاولت أن أتملص من موضوع السفر ولكن دون جدوى، تحججت بالصحيفة لكن كمال لم يرضَ بذلك رضخت علي مضض تحت إصراره وجهله بالحروب التي تدار داخلي .....

عدنا إلي المنزل مبكرًا في ذاك اليوم علي غير عادتنا، كعادة كل بيوت العزابة التي تظل خاوية علي عروشها طوال النهار ومليئة بالضجيج بالليل.....

اضطررنا علي جمع كل ما يلزمنا في رحلتنا هذه، وأثناء ذالك قلت: (يا كيمو زولتك طلعت ما مطلقة ولا معرسة زاتوا ....)

قال: «كذابة و هو يومئ بكلتا يديه ....»

(كضابة شنو أنا بعرفة من زمن البنك رواكيب....)

عدل كمال جلسته واقترب أكثر وقد بدأ عليه التشوق وهو يقول:

(بتعرفه كيف يعني .....)

(كدا ....)

استفزته إجابتي الكابحة لجموح ثرثرته وتشوقه للخبر، فقام لممارسة الضرب والركل وهو يعض لسانه...

(اصبر اصبر بوريك ياخ .....)

(أها قول....)

أردفت حتي أزيد توتره....

(ياخ اتعلم فن الحوار وشغل الحمير دا خلي عليك الله....)

وقبل أن يجد حذاءه فيقذفني به قلت:

(تتذكر زمن الثانوية وكت كنت ساكنًا مع خالي في الحاج يوسف أشار برأسه نعم...

عمي عبدالله صاحب خالي داك)

قال بملل: (بعرفوا ياخ أها بعد داك...)

(بتوا الشيطانة تتذكره...)

(أيوا ....)

(بس ياها المطلقة ذاتها)

فقد كان يطلق علي عهود اسم المطلقة حتى بعد أن عرفها، ظل مبهوتًا فاتحًا فاه من هول ما سمع كأنه أحد اتباع محمود محمد طه عند شنقه وأخذ يضرب كفًا علي كف وهو يردد الشهادتين....

لم يستوعب الأمر إلا بعد أن سردت له القصة بتفاصيلها بيد أنه لم

يكن يعير القصة اهتماما من قبل....

أعددنا العدة وحقبنا كل ما يلزمنا للسفر ....

كنت أعرف أن عهود تنتظر اتصالي، لكني فضلت التريث لشيء في نفسي، فتحت الخط قبل الجرس الثالث ....

أجابت بتردد: جدو ....

صوتها هذا أزال خيوط العنكبوت عن طبلة أذني، كأن حبالها الصوتية خلقت من طينة فاضلة لنطق الحروف الثلاثة جيم دال واو .....

لم أرد عليها....

فأردفت بعد برهة: (تأخرت كثيرًا لم أكن لأنم لو لم تتصل....)

(هل أنا بقدر....)

(كيفك....)

(بعد سمعتك كويس....)

وبعدها أخذت عهود مقود الحديث سردت كل ما حدث لأسرتها بعد أن انتقلت إلي السعودية وأقامت فيها لمدة سنتين، عادت بعد ذلك لتدرس الفلسفة في الخرطوم، أخبرتني عن كل كبيرة وصغيرة.

سألتني عن أشياء تخصني لم أكن أعيرها اهتمامًا من قبل، بدت لي أكثر حكمة بل وعميقة في نظرتها لبعض شئون الحياة ربما هي الفلسفة التي ثقلتها فباتت بتلك الكياسة .....

حاولت أن تحدثني عن الفلسفة التي لا أجيد نطقها لكنها وجدتني قد أخذت مقود الحوار هذه المرة...

لم أترك أحدًا تعرفه إلإ وحدثتها عنه حتي أظهر علوُ كعبي عليها
أرسطو ...
سقراط ....
جون جاك روسو....
ديكارت الذي كانت تعتقد أنه ألماني الجنسية لكنني أخبرتها أنه فرنسي،
وأكثر ما أعجبني في الأمر أنها تأكدت منه مباشرة من خلال حاسبها، حمدت الله علي صِحة معلومتي في فلسفة الإنجليزي بيرتراند راسل، المتشائم شوبينهاور الذي عرفت لاحقًا أنها تبغضه لنظرته التشاؤمية للحياة والحب....
وأكثر ما ندمت عليه أنني ذكرت ديبوفوار التي لا أعرف عنها شيئًا سوى أنها فليسوفة، لم تدع شاردة ولا واردة عنها إلا وسردتها لي، حتي محمود محمد طه تناولنا أفكاره بمعرفة أنثى أقل ما يقل عنها أنها مدركة.....
لم أنتبه لطول المكالمة إلا بعد أن نفد رصيدي حتي تذكرت أني لم أخبرها بأمر سفري يوم الغد...
لم تعاود الاتصال بل أرسلت رسالة لم أكن أتوقعها البتة...
(أنا لا أحب النهايات بقدر حبي لك....
صلِّ ونم بسلام....)
هكذا كانت رسالتها....

مولعة بالرسائل والجوابات والقلم الجاف والأوراق البيضاء....

لم تكن قبقب قريبة كما كنت أعتقد، ظلت السيارة تزحف بنا شمالًا إلي أن وصلنا أبو حمد ثم قبقب ....

دخلنا إليها قبل المغرب بعد رحلة شاقة تحفها المتاعب من كل جانب، خاصة أني لم أكن أود الذهاب لولا أن الأمر لا بد منه فصعوبة الأشياء تتوقف أولا علي مدي قبولك لها ثم أهليتك لذلك.....

لم يصمت كمال طوال الطريق؛ يتحدث مرة عن ما سأقوله لخالي وفطومة التي قضت شبابها في غسل ملابسي من غبار طرقات الخرطوم وهي تتخيلها ملابس زوجها المستقبلي، تنشرها لتجف ثم تكويها بعناية فائقة، هذا كان دأبها مذ سكنت معهم تتعرف علي ملابسي من رائحة عرقي التي لا تجهلها وإن كنت وسط قبيلة من الرجال.

لم أكن أنظر إليها كأنثي حقيقية لا أعرف لماذا، ربما شعوري بأنها أختي التي لم تستطع أمي إنجابها بل وأجهضتها أكثر من مرة طغي عليها وأعطاها طابعًا أنها أختي ليس أكثر من ذلك ولا أقل....

لم أنم طوال الطريق وظل كمال بين نائم ومثرثر، واكتفيت أنا بمراسلة عهود أثناء نومه.....

أكثر ما أضحكني أنها أنعشت ذاكرتي باليوم الذي نعتها بالبليدة لقلة استيعابها للمسائل الرياضية، وعلي حد قولها إنها تحب الرياضيات كثيرًا وتفهمها لكنها كانت تركز معي أكثر من تركيزها في الدرس، لذا تعجز عن الإجابة الصحيحة أثناء حل التمارين، وكنت لا أتردد في توبيخها

وزجرها كل مرة عن قضم أظافرها كالبلهاء لكنني أدركت الآن أنني الأبلة لأني لم أدرك أنها كانت تبدد قلقها وتوترها بقضم أظافرها حتي تحولت لي هذا العادة.....

تتذكر تلك الأيام كأنها حدثت البارحة هكذا هي الأنثي تتذكر المحطات المهمة في حياتها خاصة العاطفية منها ربما لديها آلية تربط الذاكرة بالعاطفة.....

هكذا هي الذاكرة دائمًا تجتر علينا لحظات الانهزام العاطفي التي نلقي فيها بكل أسلحتنا ونفضل أن نظل رهن الاعتقال خلف قضبان القفص الصدري الذي لا يجيد حبس القلب ومنعه من التحليق عاليًا.....

تتابع الأحداث ويدور الزمن دورته بهذه الكيفية ليعود بي إلي مرحلة ما قبل نمو زغبات الشعر علي إبطي، تتكرر تفاصيلها ولكن هذه المرة بسفور وعري مصبوغ بدهاء ومكر الأيام، كانت الأحداث أكثر تبرجًا في شبابنا منها في طفلتنا التي كانت تحكمها البراءة ويظللها شبح المجتمع من نافذة في آخر النفق، الوصول إليها صعب وتركها محال فهي معلقة بين ذلك.....

لم يتطلب ربط جهاز التنقيب مع الآليات الكثير من الوقت فكل المهمة انتهت في يومين، لكن أثناء تشغيل الآليات انتبه كمال إلي أن هذا المشروع سيكون أكثر نجاحًا إن تمت إقامته في منطة قردود تورو بجنوب كردفان مسقط رأسه....

لكنني قلت له: إن المشروع قد تم بيعه لذا لا يمكننا استخدامه، فقد

أخذنا مقابل جهدنا لتصميم الفكرة وتنفيذها، وما إن نكمل عملنا سيكون المقابل بأرصدتنا بالبنك، سينتشلنا هذا المشروع من البلوتلياريا انتشالًا يا صديقي

(خلاص يعني هسي بقت البرجوازية من الهبات الإلهية)

(وين تنظيراتك الزمن؟ .....)

(المال والبنون زينة الحياة الدنيا)

كانت الإجابة المناسبة لسؤاله لولا ذلك لاحمره الحوار يسارًا، عندها ليس عليه إلا أن يلبس إمامته ويتنحي جانبًا....

(لقيت المال لكن البنون وين يا معرص)

(عهود دي بعدين ح تلد سواسيو)

(خالك دا مااا ظنيت يرضي بغير بتوا فطومة...)

(والله علي كيفو يا كيمو لكن أنا بعرسا بعرسا)

قال: (إن شاء الله وهو ينظر نحو السماء)

فقلت كذلك إن شاء الله .....

كنت أعرف أن قلبي لم يعد ملكًا لأحد سواها، فهي الوحيدة التي تملك صك امتلاك تلك الحجرة التي تدعي قلب، تتسكع فيه وقتما شاءت.

لم يعد قلبي عضوًا حياتيًا يضخ الدم لأجل سلامة الجسم بقدر ما هو منتجع لسياحتها، مستعدًا لتوفير متطلباتها التي لا تتعد أن يسعها لوحدها فقط ولو استطاع أن يوقف إمداده عن فطومة لتتنخر وتموت

وتروح في حيص بيص لنال مع الرضى قبلتين دافئتين أشهي من الخبز الحار....

سألتني عهود وأنا في طريق العودة للخرطوم إن كانت فطومة تتصل بي أو أتصل بها، أجبتها بنعم دون أن أحدد من الذي يبادر بذلك، بعدها طغى علي صوتها تغييرًا عرفت عندها أن ظلمة الغيرة بدأت تتسلل إليها خفية، فما إن تظهر الغيرة حتي تدب الخلافات لأتفه الأسباب، وأنا لم أمتلكها بعد حتي أفكر في خسارتها، لن أتنازل عنها مهما كلفني الأمر...

كنت أعرف أنني أواجه نفسي أنا الغازي والمغزو

في الحين نفسه.....

أريد أن أتزوجها ولا أرغب في خذلان خالي، الشخص الوحيد الذي وقف علي ركامي وتابع مراحل بنائي حتي صرت كما أنا، وأريد عهود أيضًا بجواري .....

هل سيتقبل رغبتي ....؟

كيف ستكون ردة فعله ...؟

فطومة ماذا سيحل بها ....؟

أكثر ثلاثة استفهامات كانت تتناوب في جلد دماغي طوال الطريق دون كلل أو ملل.....

كنت أدرك جيدًا أن الخوف الذي ينتابني لم يكن إلا شبح فقدانها، نصفي الذي يكمل نقصي ولا يقدر علي ذلك إلا هي....

أو ربما هو حب الامتلاك، امتلاك الآخر بكل ما به من متناقضات، أن

تكون أنت الناهي والآمر الوحيد في حياتها بعنصرية خرساء...

كنت أود زن أحفر اسمي علي قلبها بعناية نحات، قضى كل عمره في نحت الكهوف لكن وجدتني منحوتًا دون جهد مني مخلدًا مذ طفولتي علي أزقة ذاكرتها العتيقة الخالية عن ما سواي....

الإعتياد مفزع كئيب يلقي بنا في لجة مظلمة من

عدم الارتياح في غياب من نحب لذا كنت أعرف

أنه لا سبيل إليها غير الزواج كل شيء سوى الزواج يمكن أن يملكني ذهنها، قلبها، روحها وحتي جسدها لكن هيهات هيهات، أريدهما معًا الروح والجسد،

لذا علي الزواج منها وتلك طامة أخري يظهر فيها شبح خالي الذي بات لا يفارق ذهني برفقة ابنته فطومة.

كيف الخروج من هذه الدوامة.....؟

قفلت الدفتر للذهاب إلي الجلابي ود الملك، الذي أرسل لي شرباك معرصه الوفي يخبرني بأن ود الملك يريدني أن أذهب إليه، فهو لا يأتي إلا للضرورة فقط، والضرورة هنا تعني المال، نصيبه من الوردية.....

ما إن دخلت عليه حتي أفسح لي مكانًا بالقرب منه وهو يقول: (تعالَ هنا يا آدم قنب قريب من عمك)

عرفت عندها أنه يريدني في أمر جلل فهو دائما يناديني بي ود الحايل مجردة من الاحترام الذي يطغي علي حديثه الآن.

بعد مماطلة وكثرة حلف الطلاق أخبرني بأنه يريد أن يوكلني أمر بئره

الجديدة والناتج منها يكون مناصفة بيننا .....

وافقت بعد تردد محاولة مني لحفظ ماء الوجه، ولكنني وافقت وأنا أقول: (علي الطلاق يا أب الملك أنا رضيت عشان دي بيرك أنت.....)

ربت علي كتفي وهو يقول: (عافي منك يا آدم) وأضافه وهو يخرج حقته ويضع كمية من الصعود علي لسانه ويعدل من وضعية السفه بلسانه ثم يتصيد الحارب من حبيبات الصعود التي شذت عن التموضع تحت شفتيه ويبصقها خارج:

(يلا قوم شوف ناسك وابدأ كل شيء جاهز .....)

كانت تلك البياره فاتحة خير علي والجلابي تدر الذهب صباحًا ومساء...

كنت أتذكر حديث كمال عن خراء الشيطان وأنا أضحك ليته كان موجودًا ليري بنفسه أن الشيطان نسي أن يطأ هذه البير.....

ما هي إلا شهور حتى امتلأت مخلايتي بالمال، كدت أفقد صوابي فلم أكن أتخيل أني سأجني تلك الكمية من المال حتي صرت أخاطب نفسي وأنا أضرب صدري: (افوا يا آدم القروش كانت تحت كراع الشيطان في زول بقدر يرفع كرع الشيطان ويجيبه غيريك، افوا يا آدم افوا ....)

أكثر ما أشعرني بالغرور أن بعض العمال أصبحوا ينادونني بآدم الجلابي وكنت أرد عليهم بغطرسة، كأن المال دام لأحد الدهابة.....

حقبت مخلايتي وتخلصت من الجلابية التي التصقت بجلدي التصاقًا من شدة العرق والاتساخ وودعت كل العمال في المنجم واتجهت نحو

الخرطوم وأنا أتأبط دفتر مذكرات كمال الذي لم أصل لنهايته بعد....

حاولت الاتصال بكمال لكن هاتفه كان مغلقًا منذ خروجه من المنجم لم يتصل بأحد ولا يعرف عنه وصديقه شيء سوى أنهم في الخرطوم.....

بدأ الباص يزحف بنا نحو الخرطوم في رتابة وملل، لذا أخرجت دفتر المذكرات لكي أرى ما الذي حدث بعد عودة كمال ويوسف إلي الخرطوم.....

أخرجت الورقة التي كنت أضعها بين الصفحات وبدأت في القراءة وقت وصلنا المنزل كان الإرهاق قد دمر جسدينا تمامًا.

صلينا معًا، دخل كمال لينام وبدأت أنا مباشرة في كتابة المقال الأسبوعي الذي كان بعنوان «التعدين التقليدي وأضراره» وأثناء انشغالي بكتابة المقال رن هاتفي فإذا بها عهود فتحت الخط دون أن أنطق بحرف.

(لا بد أنك تعرف أنني لا أحب المكالمات لأنها تربكني وتجعلني أقول ما لا أقصد .....)

(لقد اشتقت إليك)

قاطعتها بهذه الجملة وآثار التعب واضحة علي صوتي، لم تنبس بكلمة وبعد فترة من الصمت بدت لي كدهر.

قالت: (كيف حالك .....)

(مشتت البال لدرجة أني لا أستطيع كتابة مقال واحد)

(أستعيذ من الشيطان وسمي الله ستحل المشكلة...)

قلت محاولًا كسر الملل الذي بدأ يخيم علي المكالمة:
(أول مرة أجد شيطانة تأمر بالاستعاذة منها...)
ضحكت ملء شدقيها وهي تقول:
(شيطانة تحبك خير لك من ملاك يكرهك...)
(إذن أنا محظوظ أني وجدت ملاكًا يحبني)
(أصبحت تبالغ كثيرًا) هكذا كان ردها
(عين المحبين عليلة يا عهود)
(جدو أحدهم داخلًا علي سأنتظرك غدًا في المقهى لا تنسَ أن تصلي وتنام) ثم أغلقت الخط دون أن أودعها حتي ....

أكملت المقال وأرسلته ثم نمت وأنا أعقد النية على أن أذهب يوم غد إلي خالي لأخبره أني لن أستطيع تزوج ابنته فطومة ليس لأنها ما زالت تتبول علي فراشها ولا لأنها تأكل ليل نهار دون أن تشبع كأنها من قوم يأجوج ومأجوج ومع ذلك ما زالت نحيفة، ولا لتلك الخرائط الكنتورية التي رسمتها كيمياء الكريمات والمساحق علي وجهها، لا بل لأني لا أريدها أليس من حقي أن أختار من يكمل معي بقية حياتي كما أُريد، شخص يكملني لتتحد روحينا في لوحة جميلة تحيط بها أقواس القزح في سيمفونية إلهية بديعة، وليس شخصًا يستنسخ نفسه مني يقلد كل ما أقوم به كظلي إذا صفعته صفعني وإذا غفرت له غفر لي إما فلا....

وجدت نفسي قد انفعلت وبدأت أهذي بصوت عالٍ حتي كدت أوقظ كمال، استغفرت الله وقمت بإعادة صياغة حديثي الخيالي مع

خالي....

والله يا خال أنا لا أستطيع أنا أتزوج ابنتك لأني أراها كأختي ليس أكثر .....

طوال الليل وأنا أفكر لكني عجزت عن إيجاد أسباب مقنعة لخالي فأنا أحفظه كحفظي لسورة الفاتحة، كل الحلول التي اخترتها كانت غير مجدية لذا وكلت أمري لله ونمت فالخير فيما اختاره الله.....

استيقظت الصباح فوجدت حولي كلًا من كمال وخالي وفطومة وأمها سعاد وجدتني في أحد الأسرة البيضاء، كنت مبهوتًا مفجوعًا حاولت رفع ذراعي ولكن الدرب المربوط به حال دون ذلك....

قال خالي: (حمد لله علي السلامة).

أضافت فطومة: (سلامتك إن شاء الله عدوينك...)

قالت سعاد زوجة خالي وهي تضم شفتيها وتفرقهما بصورة سريعة كأنها تتذوق طعم شيء معين مما يحدث صوتًا أشبه بفرقعة الأصابع:

(عين وصابتك يا وليدي).

واكتفى كمال بأن ربت علي كتفي، نظرت إليه وأنا أرفع كلتا حاجبي فعرف أني أريد، أن أعرف ماذا حدث لي، قال: (ملاريا والدم ناقص شوية كده دا بيكون من تعب السفر والسهر والأكل الكعب....)

قلت وأنا أبتسم بصعوبة: (علي أساس أنك بتاكل من مائدة الجنة وأنا باكل من زقوم جهنم....)

قال: (ياخ قول ما شاء الله ما تسحرني، ثم ثانيًا أخوك صنديد).

قالت خالتي سعاد وهي تعدل من وضعية ثوبها:

(مخير الله بيت خالك قاااااعد تقنب في بيت عذابة).

لم أرد علي حديثها كأني لم أسمعها، خرج خالي وتبعه كمال بقيت أنا محاصرًا بين دعوات خالتي ونظرات فطومة، تعمدت أن أسأل فطومة عن عملها الجديد وأنا أضيف إلي اسمها أختي...

كان الغضب يتطاير من بين ردودها وهي تضع إحدي يديها علي خصرها الذي بدأ يندمج مع ترهل بطنها، فقد كانت سمنتها واضحة تدلل استخدامها لتلك العقاقير التي حولتها إلي كتلة من اللحم....

لم تكن تحبذ أنا أناديها بأختي فطومة....

لم تكن تعرف أن قلب من هو بجوارها محاط بجيوش عتادها سهام عيني عهود المسمومة ودرابزين رموشها المكتوب عليه ممنوع الاقتراب والتصوير منطقة عسكرية، ليتها تعرف لتريح وتستريح، ما هي إلا ساعات وقد امتلأ المكان بالأصدقاء، من زملاء دراسة وعمل، من الذين وصلهم الخبر من خلال كيمو فهو يعرف أغلبهم ويتواصل معهم.....

بعد إصرار طويل من خالي وكمال مع الطبيب من أجل أن يأذن بإخراجي قبل أن أشتمه أو أوخذه بإحدى إبره تلك وافق الطبيب وهو يؤكد علي كمال بأن المريض يجب أن يأخذ الدواء في وقته.

كان الطبيب يتعامل معي كرقم ليس إلا، دمي يسمي عينه واسمي قد سُبق بلقب مريض بدلا من البشمهندس التي يتشدق بها خالي باستمرار.....

كان خالي ملحًا علي أن يصطحبني لبيته، لكنني رفضت ذلك طالبًا منه أن يتركني أفعل ما أريد، متعللًا بأن كمال سيكون لوحده في البيت.....

وصلنا البيت وبدأ جسدي يستعيد عافيته حتي بدأ كمال يضحك وهو يقول:

(أنت زول جرسه ياخ اترجل شوية ياخي هسي جرستك دي جرست راجل مرا .....)

رن هاتفي الذي تركته بالغرفة منذ صلاة الفجر وقت نقلي للمشفى، كنت أعرف أنها عهود مع ذلك قلت لكمال: شوف الضارب منو وقول ليه ما فيش.....

دخل الغرفة واستغرق ما لا يقل عن خمس دقائق وخرج وهو يفرك كفيه باستمتاع فسألته:

(في شنو ....)

(دي المطلقة سألت منك قلت ليها عيان راقد علي فراش الموت قنبت تتكبكب وتتكسر.....سألتني من البيت وصفتوا ليها وهسي هي جاية ....)

فقلت وأنا أتصنع الغضب بيد أن قلبي يرقص طربًا

(أصلا ما كان توريها ....)

(علي الأقل نشوف الخالة بتاعتك دي)

صمتُ وأنا أتخيل كيف ستكون إطلالتها اليوم ....

انتظرتها كانتظار أمي لعودة أبي الذي لم يأتِ إلى اليوم، لم أكن أخاف أن يطول انتظاري ولكنني كنت أخشي أن يحول القدر دون قدومها....

تركني كمال لكي أستوي بنار الانتظار وراح ينظف غرفة لاستقبالها والتي لم تكن سوى أربعة جدران يخبي البوماستك شقوقها بحرفية معلم أفني عمره في طلاء مثل تلك الغرفة المهملة، تتكئ علي أفضل تلك الجدران لوحة زهور الخشخاش للهولندي فان جوخ قام برسمها صديقي جون عبدالله الدود ونسبة لبراعته في الرسم حُرف اسمه فأصبح جوخ بدلًا من جون كان مجنونًا حقًا ككل الفنانين....

سمعت طرقًا علي الباب أشبه بإيقاع طبلي خفيف زاد من ضربات قلبي التي بدت كإيقاع الكرنج السريع.....

رن هاتفي فسمعت كمال وهو يقول:

(من محطة الخداري الشارع التالت أول بيت بيدك اليمين بابو أسود.....)

أضاف بعد صمت:

(خلاص بجيك هسي.....)

خرج مسرعًا وهو ينفض قميصه المتسخ بالغبار، عاد قبل أن أعد لها حفل استقبال كأنها كانت تنتظره خلف الباب....كانت بسيطة كعادتها أنيقة بتناسق لونها بما ترتدي، ذات ذوق رفيع تتخير الكلمات بعد أن تنتخبها وتختار من الكلمات المنتخبة التي هي أكثر أصواتًا لتدلي بها كانت ديمقراطية في ذلك.....

دخلت بكامل أنوثتها كانت عهود امرأة أو فتاة أو قل بنت فهي تصلح لكل المسميات سابقة الذكر، ترتدي إسكرت أسود من جينز كأنه خيطه علي فخذيها وساقيها الممتلئتين الرشيقتين وT.shart أحمر يظهر جزءًا من نهديها البارزين، بالإضافة إلي حذاء جلدي جميل ركزت علي ماركته جيدًا فقد كانت علامة أديدس..... لها وجه جميل دائري وعلى ما يبدو لي أنها لم تكن تستخدم كريمات ترميم وتفتيح البشرة، لأن بشرتها كانت خضراء كأرض هذا الوطن، بعض خصلات الشعر تغطي جزءًا من الوجه، أو أنها تغطي أغلب أجزاء الحاجب الأيسر ويبدو أن ذلك تم بعد جهد جهيد ووقوف لساعات طوال أمام المرآة، كان على وجهها هدو غريب، كانت تتجه نحوى بخطى ثابتة لا تثير الغبار أثناء المشي ولا يحدث حذاؤها خشخشة فهي تمشي على هدوء ومهل.

كانت تتجه نحوي.. فلما اقتربت مني هذه الملكة الأسطورية خفضت نظري منها، بدا على الارتباك واضحًا فحاولت أن أبدد ارتباكي بالبحث تحت وسادتي المملوءة بالعقاقير وعندما رفعت بصري كانت تقف علي رأسي وأنا مستلقٍ علي السرير، حاولت القيام فقالت:

(لم آتي لكي أزعجك).

ولما لاحظت إصراري علي القيام قامت بمساعدتي بسحب يدي ووضع الوسادة علي ظهري وهي تقول:

(هكذا أفضل؟)

أشرت برأسي نعم، وأنا أشير لها بالجلوس ذهبت لتجلس في السرير

المقابل.

عندها قلت: (أريدك قربي يا عهود.....)

انتقلت بجواري وهي تقول: (اليوم طلباتك أوامر).

أتي كمال بالعصير وهو يقول:

(الشيطانة شخصيًا معنا في البيت يا محاسن الصدف، زارتنا الملائكة).

سألتني:

(لم يتغير كمال كثيرًا؟....)

سؤالها هذا ذكرني بقصة كمال الذي هو الأخ الأكبر لأخواته الست، وكان والده من النوع الذي لا يبالي أو يهتم بإعاشة أبناءه، يكتفي بالتناسل فقط ، مما شكل تضاريس شخصية كمال المسئولة، لذا لم يكن يرى في الفتيات إلا أخواته الست، حتي ميرم زميلتنا بالجامعة لم يكن يشتم رائحة عشقها إلى أن أخبرته بذلك وليتني لم أفعل لأنه هجرها بعد ذلك وأصبح يتحاشى التقائها، حتى القهوة أصبح يتمرد على احتسائها لأنه يدرك أن ميرم ستكون حاضرة وستحاصره بنظراتها التى انتبه لها أخيرًا فحرمها من التلذذ حكايته المفركة ومناكفته المستمرة لها، من جانبي كنت أعرف أنه يرى فيها أخته الصغيرة خالدة بهيكلها الأبنوسي الفارع.....

لكن تلك الأبنوسية ميرم استطاعت أن تعيده إلى حلقة القهوة الصباحية، حيث أخبرته بأنه الأقرب إلى قلبها، فلا يحرمها من لقب (الصغيرونة)وهو نفس اللقب الذي يطلقه على شقيقته خالدة، كان

لميرم ما أرادت فعاد الضجيج إلى جلستنا مجددًا بعودة كمال وأراحت نفسها من حديثي عن التسامح الديني وكثرة ترتيلي لبعض الآيات من الأسفار.

كنت أتمنى أن أراه يهوي في هاوية الهوى، لكنني حذرته من ذلك لاحقًا وأنا داخل جب الحب.....

ولما لاحظت طول فترة شرودي عن سوال عهود أجبتها قائلًا:

(كمال نقي بدرجة لا تقبل الشوائب) هكذا قلت وأنا أسحب يدي الخشنة من يدها الطرية الرطبة حتي لا يضبطني كمال، ناكفها كمال كثيرًا وهو يكرر أن لقب مطلقة يليق بها، كانت تكتفي بالابتسامة لتدع لي مساحة لتأملها، فطرنا ثلاثتنا معًا وشربنا القهوة التي أعدتها بنفسها، كانت بمذاق النبيذ ونكهة نبات الخشخاش وتحدث بالرأس فعل البنقو والشاشمندي، كانت الجميلة جميلة في ذلك اليوم أو هكذا ارتأيتها بعيني عاشق مطموس.....

تركنا كمال لوحدنا ليشعرها بالأمان ولكنني كنت أعرف أنه يتجسس علينا فهذه عادته التي لا يدعها أبدًا.

قالت معاتبة:

لا تسافر دون أن تخبرني فأنت لا تعرف أن الجسد بلا روح يدعي ميت، بعد أن أعطتني قائمة طويلة من المحاذير، يتصدرها عدم السهر ويليه تناول الطعام ويتذيلها تقليل التدخين، رغم سذاجتها كنت أحس أني طفلها المدلل، وفي أثناء حديثها كانت تبدد قلقها باللعب بشعري

المجعد الخشن كسلك تلميع الأواني، كنت أشتم رائحة أنوثتها تفوح بالمكان، رائحة المطر تستفز فحولتي وتدخلني في شق شبقها، ضممتها بشدة وعندما اختلطت أنفاسنا قبلت شفتيها المكتنزتين ليبدأ صدرها في العلو والهبوط في وتيرة بطيئةوكاد الأكسجين أن يضل طريقه إلي رئتيها، عدلت من جلستها وهي تنظر نحو الأرض كأنها تبحث عن شيء معين، لكنه الحياء تبًا لي ما الذي جعلني أقوم بذلك وأنا أعرف أن شفتيها شهية لا يقوي أحد علي عصيانها عندما تقول التهمني، استغفرت الله وأنا أغمغم ببعض الدعوات ليغفر الله لها ولي قالت: ماذا تقول ....

لا كنت أستغفر فقط ....

قالت: (حسابنا عسير عند الله ستدخلنا النار يومًا)

(هل يدخل الحب النار أو تعاطيه؟ لم تجب فأضفت هل تؤمنين بالله....؟)

(هل هذا سوال كيف لا أؤمن به)

(وبالطبع لا تشركين به....)

أشارت برأسها نعم وقد بدأ عليها التذمر

قلت قد قال الحبيب صلي الله عليه وسلم (من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة).....

قامت واتجهت نحو الغرفة التي كان يجلس بها كمال كانت تودعه....

ودعتني كأني لن ألتقيها ثانية وقبل أن تخرج قالت: يا جدو لا تنسَ أن الرسول صلي الله عليه وسلم قال أيضًا (لم أرَ للمتحابين خيرًا من

الزواج)

قلت: (هذا حديث ضعيف)

لكنها خرجت وهي تلوح .....

وأكثر ما كان يحيرني طوال فترة زيارتها أنها كانت تمسك بشيء بكفها البض.

لم أعر ذاك الشيء اهتماماً لأني كنت أتجول في معالم وجهها التي لا يملها سائح كأنها جزر المالديف التي أسمع بها كثيرًا، زيارتها كانت بردًا وسلامًا، لا تقل روعة وبهاء عن مرور الربيع بالبلاد ذالك المرور الذي يحسبه البعض معدومًا، ويرى البعض أنه لا يتعدي ثواني قليلة، لا ينتبه لها أغلب الناس، أفقدتها صوابها عندما أمسكت بيدها وأنا أحاول معرفة ما بكفها، كانت تقوم بغنج أنثوي وهي تتلوى كأنكوندا بطبعها المسالم، لم تطل مقاومتها حيث فتحت كفها بإرادتها دون أن أرغمها أو أستخدم معها كل قواي، فقد كنت أخشي أن تتهشم أصابعها تحت وطأة يدي، فلم أكن أقومها بل كنت أُداعبها.....

لم يكن بيدها شيء سوى منديل ورق ناعم يمكن أن يقال عليه خشن مقارنة بملمسها الذي هو أكثر طراوة من الزبد، كان المنديل مبتلًا بالعرق كأن كل غددها العرقية تحولت لكفها لتبدد عنها القلق.....

سألتها: منديل

أومأت برأسها وهي تضم شفتيها بدلال مما جعلني أقول في نفسي، لقد أخبرتك مرارًا ألا تنظري لي هكذا وأنتِ تضمين شفتيك بغنج

أنثوي كافٍ لتحطيم صخرة صلدة فماذا سيحدث بي وأنا هش، متهالك، رخو كالماء تحت وطأة عينيك التى تذيب السحاب فينهمر المطر ببكاء هستيري يبلل الأرض، عندها تغوص قدماي في الوحل وأنا أبحث عن طرقات مسفلتة تقذفني إليك، لكن رائحة المطر تغذو أنفي وتقتلع كل زغابات الشعر من مناخيري، تقشعر شعبي الهوائيه من هذه الرائحة التي تستقر أخيرًا بأسناخي وتمتزج مع الأكسجين لكي تصل إلى كل نوافير الدم في جسدي عندها ينساب السطل بخلايا جسمي لدرجة الاختمار دون أن ترتعش أصابع يدي وهي تداعب ورق البرنسيس ودون أن يصل إلي أذني صوت سكير وهو يحطم غنينة فوديك معتقة...

لم يتعرف طلاب المزاج والإنديجة علي رائحتك هذة، إلا لكانت شرطة المكافحة تعمل على سجن كل من يشتم رائحتك يا عهود، ومن نعم الله على أنه لم يكتشف رائحتك أحد سواى.....

ما إن خرجت حتي خرج كمال وهو يضحك، كنت أعرف أني اليوم لنا أرتاح من مناكفاته ووهمنته المعتادة.....

قال وهو يجلس علي بطني بثقله كله:

(شغلك نضيف يا فردة)

لكمته ليقوم من بطني لكن دون جدوى فصرخت:

(يا بشر أنت عارف أنا عيان.....)

قال: (ما هسي كنت زي الحصان وكمان بتقرص بنات الناس).

لم أستطع منع نفسي من الضحك

(والله المطلقة دي مع فطومة فرق الفارة والفيل).

كنت أعرف أنه يريد أن يثير غضبي لكنه تمادي عندما قال: (ياخ دي عندها نص في برشلونة مافي ....)

ادعيت التذمر وأنا أقول:

(ياخ احترم نفسك ما تنسي إنو دي مرت أخوك ....).

اعتذر وهو يدعي الجدية والكياسة وهو يكتم ضحكته التي فقد السيطرة عليها ما إن استدار من أمامي.....

لم يكن هنالك أفضل من اليوم للاتصال بخالي، لذا أخرجت الهاتف واتصلت به قبل أن تتلاشي القوة التي تدفعني لذلك.

رفع الهاتف وبعد الأسئلة المعتادة والروتينية عن الحال والأحوال، دلفت إلي موضوع زوجي من ابنته وبعد مقدمة طويلة وعريضة أخبرته أني وصلت إلي قرار نهائي بعد طول تفكير بعدم مقدرتي علي الزوج من ابنته فطومة، كنت متردد جدًا من ردة فعله لكنه استقبل الأمر برحابة صدر، قطعًا لم تكن من عاداته فأنا أعرفه كما أعرف اسمي، لكني عرفت مؤخرًا أن فطومة قد أوقعت رئيسها بالشركة التي كانت تعمل بها في حبائلها الشائكة.....

بعد انتهاء المكالمة أحسست أن حجرًا ثقيلًا قد أُزيل من كتفي حجر حملته كل تلك الفترة حتي صار جزءًا مني.....

أصبحت لا ألتقى عهود كثيرًا بعد أن بلغت الصحة، حتي المكالمات بدأت تأخذ طابع واجب التفقد ليس إلا، سألتها إن كانت تمر ببعض

المشاكل لكنها نفت ذلك، باتت حواراتنا كالماء بلا طعم أو لون أو رائحة، لم يكن يبعدني عنها غير التفكير فيها، أصبح الدوران في أفلاكها يأخذ جل وقتي حتي مقالاتي ظهر عليها طابع الشرود عن المحتوي الرئيسي بل بعضها كان يرفض وهذا أكثر ما دلل لي أني لست بخير.....

حسمت أمري بأن أخطبها، وكان هذا رأى كمال منذ البداية لكني فضلت التريس فوجدتني لا أحتمل بعدها أكثر، أخبرتها بذلك فاستقبلت الخبر بفرحة عارمة، وقالت إنها كانت تنتظر مني ذلك دون أن تطلبه، عندها عرفت أن ما كان يعرقها أنها انتظرتني كثير لأفوز بها، ولكنني كنت بطيئًا في اللحاق بها لقد فعلت كل شيء يمكنها فعله حتي أجبرتها أن تفتح كل نوافذ قلبها وتراودني عن حبها ومع ذلك لم تفتح فمها لتقول كلمة واحدة تجعلني أخطو خطوات نحوها، لذا قلت معاذ الله أن أتراجع عنك، سأبسق خطواتي نحوك الآن وغدًا فقط قفي....

أتتنى الرسالة التالية وأنا أجهز هندامي للذهاب لأسرة عهود (صباحًا جميلًا...لا تنسَ أني ما زلت أستيقظ كل صباح يا جدو وأفرك عينيَّ بظهر يدي وأتناول هاتفي لأقرأ كل رسائلك والمدهش في الأمر أنها تكون دافئة شهية كأنك طبختها الآن بل وما زال بوخ حروفك يغازلني من خلال شاشة الهاتف، هكذا أفعل دومًا أتناول كلماتك على الريق لتمنحنى بعض الخدر، عندها أروح في ثبات عميق أستيقظ منه على صوت رسائلك النصية المتخفية وراء ستائر اشتياقي.....

رغم أني كنت منهمكًا ببعض الأعمال كانت لابد من الرد على تلك

الرسالة وهي حار قبل أن تبرد فتفقد نرجسيتها، بدأت أكتب، (أُحبك) ضغطت على زر الإرسال وما إن نظرت لإشارة تدل علي إتمام القراءة قررت أن أرفقها بأخرى قبل أن تجيب (إذا وصلتك رسالتي هذا فلا تنسى أن تطبعي ثلاث قُبلات علي شاشة هاتفك كلما قرأتي حرفًا واحدًا ليكون المجموع 12 قُبلة بالتمام والكمال، وإذا كنتِ قاسية وخصمتي قُبلة ذاك اليوم، وقتها أكون مُدينًا لك بـ11 قُبلة، وإذا تمنعتي عن سداد ما عليك من ديون فسيتخذ القانون مجراه).

دست على زر الإرسال فلا بأس ببعض الجنون إن كان في ذلك جنون....

الفصل الخامس

بتاريخ 12 سبتمبر 2015 كنت بداخل منزل أسرة عهود الكائن بأبو حمامة وBبوها البدين ينظر إلي بعينين حمراوين، إن دلتا إنما تدلان علي معجزة الجدائل الجينية التي أخرجت العنب من اللالوب فسبحان الذي يخرج الحى من الميت....

بعد القيام بواجب الضياف وتلك الأسئلة التي لا تسمن ولا تغني من جوع عن قبيلتي وأهلي وأسرتي لم يسألني إن كنت أحب ابنته، أو شيء من هذا القبيل رغم أنه يعرفني مذ كنت صبيًا ، وقتها كان يقيم بالمنزل المجاور لخالي بالحاج يوسف، ولم يكن بتلك البدانة والبلاهة التى تصرخ من جلابيته المهترئة، والزرارة المهلهة شاهدة على ذلك....

هو يعرف أنني لا ينقصني شيء للفوز بابنته غير أن سحنات وجهي وقبيلتي لم تكن تعجبه، كان واضحًا أنه مصابًا بمتلازمة التحذلق اللغوي باستخدمه عبارات لا تناسب سنه ولا تعليمه أو حتي عصره، أشياء تتقزز مزبلة التاريخ من تقبلها...

سألته إن كان سبب عدم أهليتي للفوز بابنته هل بسبب قبيلتي التي هو ليس بعيدًا عنها إن لم يكن منها، لكنني كنت أشم رائحة أمها في

كلماته التي ظل يتقيؤها في أذني، فجعني عندما قال إن كل أفراد أسرتي لا يقيمون مع زوجاتهم وبرهن علي ذلك بأبي الذي اغترب بعد مولدي ولم يكن يأتي إلا بعد أكثر من سنة ولكنه يعود إلى غربته بعد أسبوع، وهو لا يحتمل أن يرى ابنته تترمل وزوجها علي وجه الدنيا، أضف إلي ذلك أن البنت قد حجزها ابن عمها والذي أعرف أن عمره ضعف عمرها ثلاث مرات عدول.....

كنت فقط أُريد أن أبصق علي وجه أبيها وأركله في مؤخرته حتي يفقد وعيه أو يرتفع الضغط عنده فيموت، كانت المرة الوحيدة التي تمنيت فيها الموت لأحد أو حتي قتله إن سنحت لي فرصة ذلك، ألايستحق الموت بعد أن وضعني في دبر نملة وقال لذات النملة ادخلي مسكنك.

أضاف وهو يتنحنح:

(إني شاب ناجح وألف بت تتمنني)

قلت في نفسي تبًا لك يبدو أنه يعتقد أنني أريد النكاح من أجل النكاح.....

ألعن حظي العاثر واليوم الذي اغترب فيه أبي بحثًا عن المال، أفني عمره كله دون أن يجني المال أو حتي يرعي ابنه الوحيد، ها هي عهود قد أناخت بعير حبها علي قلبي لا هي جاءت إلي بعيرها لتخلصني من ثقله ولا جاءت إليَّ لأرى عينيها وأصمد قليلًا.....

خرجت وأنا متأكد أن حاقتي قد حقت وقامت قيامتي علي يد أبوها الذي منع شرنقة حبنا من التحول إلي عزاري بإدخالها في كمون لا فكاك

منه، إحساسي لم يكن أفضل من إحساس مشجعي باريس سان جيرمان بالرمنتادا التاريخي للبارسا بل كان أسوأ بكثير، اتصلت بي كثير لكنني فضلت ألا أرد عليها يكفي ما سمعته من ذلك المعتوه المدعو عبدالله .....

لم يكن كمال يجيد التصرف في مثل هذه الحالات اكتفي بأن طلب مني أن أحاول نسيان ما حدث، تخلصت من كل ما كان يربطني بعهود حتي أرقام هواتفي غيرتها، وذلك بعد أن أرسلت لها رسالة لكي أوبخها لكني وجدت نفسي أثني عليه (أتمنى بكل ما بي من فضول وكل ما في من شغف أن ألج مقلتيك دون أن تحول رموشك المحدبه ذلك لأنفذ إلي الركن القصي من ذاكرتك لأرى محتواها وأبعثر بعض ذكرياتك المحزنة وأزيل عنها غبار الأحزان وأكنس ما بها من أتربةالويلات وأعتصرها منك عنك وأجردها من كل ما فيها من لقط....

لم أكن أعرف أن لعينيك كل هذا القدر من السحر إلا بعد ولوجها يوم أن قبلتك، لابد أنك تتذكرين تلك القُبله الدافئة لحظة اندماج روحينا المخالدة في ذاكرتي ولكن ما رأيته في ذاكرتك الهرمة مقارنة بعمرك شيء يشيب له الولدان ولكن كل ذلك ضئيل مقارنة بكبر ما في ذاكرتك من حزن وانتظار ثم انتظار بعد طوال صبر.

ولا شيء آخر هذا كل ما في ذاكرتك ما عدا لوح خشبي كبير غائر في ذاكرتك منحوت عليه اسم أحد الوهمانين بك، مطموس يدعي يوسف محمد يوسف ذلك ما ارتأيته ببصري وبصيرتي هذا كل شيء لا لقد تذكرت أن هنالك خيطًا رفيعًا لكنه متين يقود إلي قلبك الذي ليس

به إلا الحب، تتقوقع بالقرب من ذاك الخيط أكوم من الجنون في منتصف الذاكرة، قللت من خشخشة قدمي حتي لا أوقظ جنونك النائم فيلتهمني ولكن دون جدوى استيقظ وقبل أن يبدأ بالزحف نحوي كأفعى رقطاء قلت له: جدو جدو عندها راح في نوم عميق وهو يشخر ...

وأنا خارج لمحت صندوقا صغيرا فأجبرني فضولي علي العودة لرؤية ما بداخله، وبعد جهد وعناء تمكنت من فتح الصندوق، لم يكن به شيء سوى تلك القُبلة اليتيمة هل تتذكرين طعمها أو تتذوقينها مثلي كل صباح....

حزمت أمري وحقبت أشيائي وتركت لك ذاكرتك كما هي بكل ما فيها من فوضوية وقتها تذكرت حبك لعشوائية شعري تلمسته فوجدته مجعدًا كما هو، فلم أعد أسرحه مذ أخبرتيني بذلك، تذكري ذلك فتاتي الغالية، لفظت نفسي حافيًا من خلال عينيك وأول ما أبصرتيني قلتِ وأنتِ مفزوعة:

(أنت جدو صاح ....)

فقلت لك:

(أنا الذي كان يحبك وما زال ..)

ضغطت على زر الإرسال وتخلصت من كل شيء يربطني بها إلا قلبي الذي تسكنه.....

بعد 4 شهور من زيارتي لأسرة عهود إن لم تخني الذاكرة، ذهبت لبيت خالي فوجدت فطومة التي لم أقابلها منذ يوم زفافها مع أمها، لأن زوجها

قد سافر لقضاء بعض أعماله التي لا تنتهي، وقتها أخبرتني بأني أصبحت هزيلًا جدًا وأضافت أيضًا أن عهود قد تزوجت قبل أسبوع من ابن عمها وهي الآن إن كنت قريبة ستكون في السعودية تتنعم بمال زوجها الذي يقال عنه إنه فاحش الثراء ولكنه يكبرها في السن....

(ربنا يسعدها)

هذا كان ردي فقد كنت صادقًا في دعائي لأني متأكد أنها ستكون أسعد معي...

خرجت من بيت خالي وأنا زحاول أن أذهب إلي مكان لا يذكرني بعهود وأيامها، ولكنني وجدت قدمي تقوداني إلي المقهى الذي ما إن رأتني حتي أتت وهي تثرثر بلباقتها المعهودة لم أتجاوب معها كعادتي لذا سألتني:

(هل أنت بخير؟)

(نعم القهوة يا سارة)

من خلال ردي عرفت أنها لو سألتني سؤالًا آخر ربما تسمع طلاسم إفريقيه لن تفهمها لكنها ستعرف أنها تفيد الغضب والتذمر مع السخط، لذا أتتني بالقهوة حواء صاحبة المحل بنفسها وهي تقول:

(أنت كويس يا ولدي....)

قلت: (كويس الحمد لله ماشي الحال....)

وكان شكلي ساعتها كمن يريد إقناع كفيف يسيل العرق منه بسبب هجير الشمس بأن الأذان الذي يسمعه الآن أذن صلاة العشاء قادم من

كنيسة بالجوار يرفع الأذان أبكم ومن يتحدث إليه الكفيف أطرش لا بد أن ذلك محالًا .....

فما كان في من بؤس العزلة وشقاء لن تستوعبه رواية البؤساء لفيكتور هجو (ربنا يديك ويرضيك).

هكذا قالت الحاجة حواء وهي تتلمس طريقها نحو مقعدها العتيق.....

شربت القهوة وقبل أن أذهب سلمتني سارة رسالة أتى بها أحد لا تعرفه، كنت أعرف أنها هي فلا أحد يحب الجوابات مثل الشيطانة فقد كانت عميقة في كل أشيائها، فتحت الجواب ولم أجد به شيئًا غير ورقة بيضاء، قلبته جيدًا فوجدت مكتوبًا على الجزء الداخلي للظرف (انتظرني سأعود حتمًا لنكتب قصتنا علي الورقة البيضاء احتفظ بالورقة ولا تنسَ أني لك) عهود عبدالله ....

كدت أمزق الورقة لكن قوة خفية كانت تمنعني من ذلك، نفس القوة التي جعلتني أُقبلها قبل ذلك، طبقتها بعناية وخرجت وأنا أنوي أن أترك الخرطوم لأنها لم تعد صالحة لي.....

أخبرت كمال برغبتي بالتوجه إلي مناطق التعدين بأبو حمد طلب مني ألا أذهب فعملي في الصحيفة لا يعوض.

عندها أخرجت له قرار فصلي من الصحيفة بسبب ركاكة أعمالي مؤخرًا ....

فضل كمال أن نذهب إلي جبال قردود تورو فوافقت، أخذ ما يلزمه

وأخذت أنا كتبي وورقتي البيضاء، أرسل كمال بعض المال لأسرته وتركنا المتبقي قابعًا في البنك واتجهنا إلي جنوب كردفان قاصدين قردود تورو.....

أخذ آدم يقلب صفحات دفتر المذكرات من جديد لكنه قد انتهي من كل صفحاته وما زال حب استطلاع آدم يتضخم لن يستريح إلا بمعرفة ما جرا لعهود، لا بد له من معرفة نهاية القصة....

دخل آدم الخرطوم محملًا بمال لا يستطيع حسابه يريد أن يشتري له عربة لتسهل عليه إدارة أعماله التجارية في الأبيض ومع ذلك يريد أن يبحث عن صديقه كمال لكنه يريد إلتقى يوسف لشيء في نفسه لم يكن يؤمن بتلك النهاية المأساوية التي أحالت يوسف إلي جسد بداخل ثياب ليس إلا.....

اتصل آدم بكمال لكن دون جدوى فهاتفه مغلق طوال الوقت، قضى شؤون تجارته وأرسل كل مستلزماته للأبيض في أقل من يومين فعندما يكون عندك المال كل أشيائك تكون سريعة بما في ذلك حياتك .....

كرر الاتصال مرة أخري بهاتف كمال وبينما هو ينتظر الرد من الجانب الآخر أتاه صوت يوسف الذي لم يكن يجهله بدأ آدم يسأله عن حاله وأحواله وكان يوسف يرد ولم يكن يعرف المتصل وقبل أن يسأله يوسف عرفه بنفسه وكاد يوسف أن ينساه لولا دفتر المذكرات الذي عند آدم ....

تذكره فقط بدفتر المذكرات إلا لنسيه، أخذ آدم عنوانهم الذي كان بالحاج يوسف علي أن يزورهم يوم غد إن شاء الله وقبل أن يودعه قال

يوسف: (الدفتر معك ولا راح منك؟)

(هو داك دفتر بروحوا يا يوسف، الدفتر قاااعد يسمع في كلامك).

تنهد آدم وهو ينتشي بمذاق الانتصار، لم يكن يؤمن أو يرضي بتلك النهاية لا بد أن هنالك حلقة مفقودة لم يبحث عنها يوسف بعد انكساره ولو بحث عنها لاستراح. لم يكن التقاؤهم محض صدفة ولا افتراقهم ثم التقاؤهم للمرة الثانية أبدًا، لم يكن صدفة بل القدر من جمعهم وفرقهم وسيكون القدر الذي يجمعهم للأبد.....

وصل آدم البيت دون جهد يذكر ووجد كمال في انتظاره الذي استغرب كثيرًا من منظر الثاني الذي لم يتغير كثيرًا غير أن النعمة كانت تصرخ من عطره وهندامه احتواه كمال بحضنه الذي بدا ضئيلًا جدًا مقارنة بجسد آدم، ما إن دخل حتي وجد يوسف ينشر أحزانه علي ذلك الخيط الرفيع الذي يقود إلي قلب عهود وبعض الملابس المبتلة ما زالت قابعة في طشت أحلامه....

قام كمال يجفف يده من أحزانه ليضم آدم لأول مرة منذ أن عرفه لكنه أحس كأنه جزء منه رغم غطرسة يوسف إلا أنه التمس له الأعذار دون أن يعتذر.

كاد آدم أن يزرف الدموع ولكنه تماسك وهو يتذكر وجود كمال الذي سيخلد هذه الذكرى وسيستخدمها ضده.....

هذا ما سرده كمال لآدم الصغير ابن صديقه يوسف في زيارته الأخيرة ليوسف مستغلًا انفراد زوجته ميرم الثرثارة مع عهود داخل المطبخ وهما

تعدان وجبة الغداء وكان وقتها يوسف منهمكًا بمقال يوم غد.....

لاحظ آدم الصغير أن عمه كمال ينظر طوال فترة سرده إلي تلك الورقة البيضاء المعلقة بجدار الصالون والتي يقول والده إنها لوحة رسمتها الشيطانة بيد أنها خالية حتي من الحبر، كلما سأل آدم الصغير عمه كمال عن تلك اللوحة قال له كمال: (اسأل أمك الشيطانة وأباك المطموس.....)

النهاية.....

الفهرس

- الفصل الأول 5
- الفصل الثانى 19
- الفصل الثالث 45
- الفصل الرابع 59
- الفصل الخامس 87